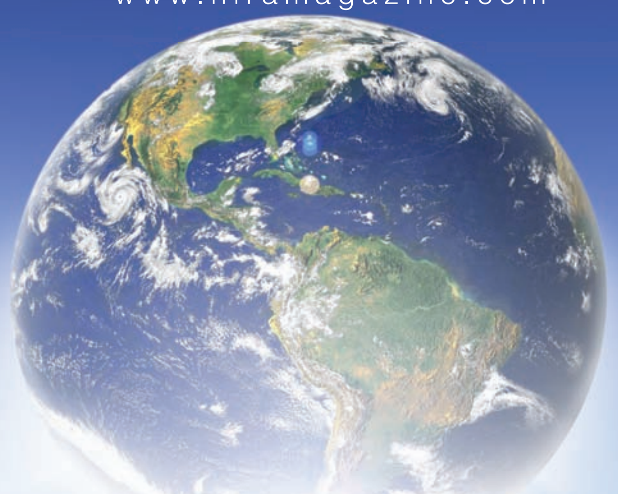


www.hiramagazine.com

العدد العاشر / السنة الثالثة / (يناير - مارس) ٢٠٠٨



مظلماً كان العالم، في الدياجير غائصاً،

حتى إذا وُلدتَ ملأ نورك الآفاقَ، وأثار الأشواق، وأشعل مصابيح الأفهام...

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

الآتون من وراء الغيب

لا أحد يشك بأننا أصحاب آلام وأوجاع تمزّ كياناتنا الفكرية والنفسية من الداخل، وتكاد تجهز على البقية الباقية من حياتنا الروحية. وعلى الرغم من قتامة هذه الصورة لواقعنا الفكري والروحي، غير أننا لا نزال نضع آمال خلاصنا في أجيالنا القادمة كما يصورها لنا الأستاذ فتح الله كولن في صدد هذا العدد.

فالأستاذ في هذا المقال ينقش في أذهاننا صور هذه الأجيال المثالية المنتظرة ومواصفاتها وما هو مناط بها لتؤديه بكفاءة عالية للانبعاث الحضاري والفكري لهذه الأمة المنكوبة. إنه يستدعي أشواقنا إلى المجد الضائع، ثم يودعها عقل رجل الفكر ويأتمنه عليها. إنه يرفع ضوءاً ساطعاً في قلب تلك الظلمة المهلكة، ويرسم ملامح رجل الفكر بمهابته وبمزاجه المصابر العنيد وهو يشق الطريق ويزيح من أمامه العوائق والسدود، فقواه العقلية والروحية قادرة على تحريك الجبال والإتيان بالخوارق والمعجزات. وهذا الهدف السامي والواعد سيظلّ نصبَ أعيننا وأعين أصحاب الأقلام من كتّاب المجلة.

ولعل أستاذنا الفاضل الدكتور محمد عمارة في مقاله عن "سنة التدرج" يرسم طريق الوصول إلى هذا الهدف بالدعوة إلى التدرج في العمل الفكري والدعوي. فكل محاولة للقفز من فوق مراحل التدرج محكوم عليها بالفشل. ولا زالت "حراء" تجد في السنن الكونية مصداقاً لهذه التدرجية.

فمقالة الأستاذ الدكتور فريد الأنصاري هي الأخرى تصبّ في الاتجاه نفسه حيث يرى الأنصاري أن القرآن هو روح الكون وأن المعرفة القرآنية هي سبيل معراج المؤمن لمعرفة الله تعالى والتعرف عليه سبحانه من خلال سننه ونواميسه.

أما الأديب والمؤرخ والناقد الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل فإن مقاله الموسوم "المضمون الفكري للأدب الإسلامي المعاصر" إسهام في تأصيل المضامين الفكرية في النتاجات الأدبية للأدباء المسلمين. أما شاعر المغرب الكبير الأستاذ حسن الأمراني فإنه يتحفنا بقصيدة من روائع قصائده "شوقاً إلى الله". فهو يرسم في هذه القصيدة طريقاً عروجياً لأشواق المسلم إلى الله تعالى.

وبعدُ، فما دامت النية قد انعقدت على هذا الأمل الواعد فإننا في حاجة إلى المزيد من الأقلام التي تكرس نفسها لمقاربة هذا الأمل والتمهيد له. فما من صفحة من صفحات البطولة أجدر بالاحترام من صفحات البطولة التي تحرزها الأقلام وتتنافس فيها لكي تحرز قصب السبق إلى الإنسان المسلم الجديد.■



www.hiramagazine.com

العدد العاشر – السنة الثالثة (يناير – مارس) ٢٠٠٨

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير المسؤول
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

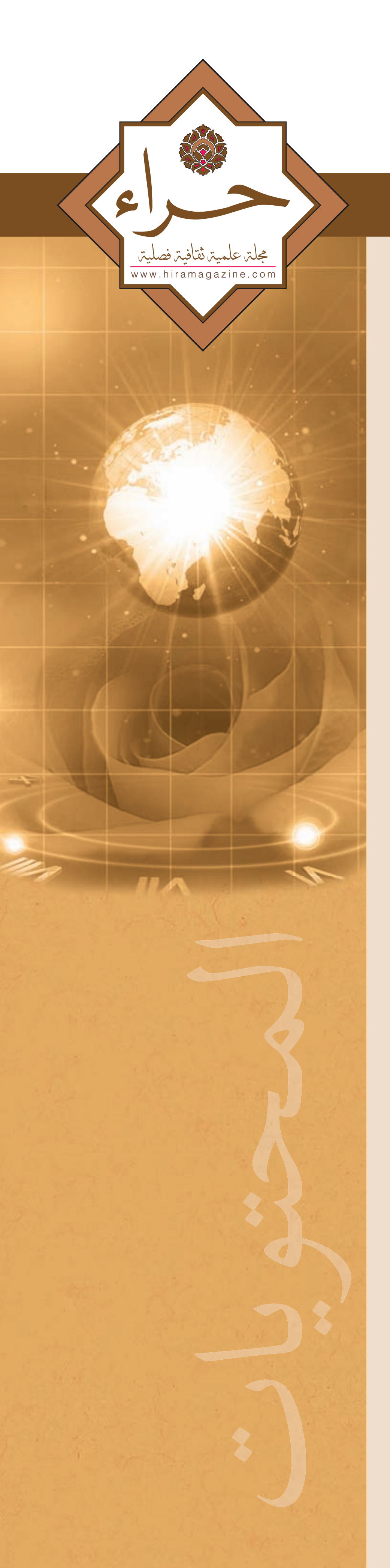
المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

الاشتراكات/مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاالتف الجوال : +20165523088
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

رقم الإيداع
١٣٠٦-١٨٧٩


حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com
المحتويات

المحتويات



الأجيال المثالية

فتح الله كولن

في هذه الأيام المطلة على أيام الحبور، إذ يستنشق فجرهـا أنفاس العيد، نجد في الواقع نوبات مرض ومعضلات تبدو مستعصية على الحل. وإن العلل الاجتماعية وأمراض الأمة الجسيمة، والآفات الطبيعية، وما يشبه هذه الأزمات التي تستشري في جسد المجتمعات لا تعالج بتدابير يومية قصيرة الباع. فإن معالجة أزمات واسعة الآثار كهذه منوطة بشيوع البصيرة والعلم والحكمة في المجتمع. وعلى نقيض ذلك، الاشـتغال بمعالجتها بسياسـات المناورة اليومية التي لا غاية لها ولا أفق فيها ليس إلا هدراً للزمن. ونعلم من أمسـنا ويومنا أن رجال الروح والمعـنى والبصيرة قد حلّوا عُقَد أعصى المعضلات والأزمات بيسرٍ لا يسـتوعبه خيالنا، وذلك بسعة آفاقهم وعلو هممهم، وبتحريك قسم من مصادر قوة اليوم لحساب المستقبل.

وكثيراً ما حسبنا تدابيرهم الفذة فوق قدرة البشر وأصابنا الدهش والشَّدَه منها. والواقع أن ما قاموا به هو ما يقوم به كل موفق من الرجال... ألا وهو اسـتنفاد كل الطاقات والقدرات التي وهبها لهم الحق تعالى وبأحسن وجه مفيد.

التحرر من قيود الزمان

نعم، أولئك ينشغلون بحساب الغد مع اليوم ليل نهار، ويستعملون الإمكانات والحركيات الحاضرة أحجاراً لإنشاء الجسور الموصلة إلى الغـد، ويجدون في حناجرهم غصص نَقْل الأيام الحاضرة إلى الأيام القابلة... يبتلعون حسـابات هذا النقل غصة بعد غصة، لأن حل عقدة المعضلة مرتبط بتجاوز الزمن الحاضر، بل بالتحرر من قيود الزمان... إلى درجة النظر إلى الماضي والحاضر والقابل،

والقدرة على تحليله وتقويمه، بالصفاء والنقاء نفســـه. هذا الفكر الرحيب الذي يعني احتضان الغد منذ الآن، وفهمَ محتوى المستقبل روحاً ومعنى، يجدر أن نسَمّيه بغاية المنى والمثالية التي نتوق إليها، إذ لا يُتصور أن يتغلب من لا تتســـع آفاقه هذا الاتســـاع على معضلات ومشـــاكل كهذه، ولا أن يَعِدنا بشيء ذي بال لبناء المســـتقبل. إن الفخامة والعظمة والحياة الصاخبة لفرعون ونمرود ونابليون وقيصر وأمثالهم لم تقدم شـــيئاً باسم المستقبل -مهما كبرت أعمالهم في عيون قوم يحســـنون الظن بلا تمحيص- بل إن ذلك محال، لأنهم وضعوا الحق تحت إمرة القوة، وشدوا الروابط الاجتماعية حول المنافع، وقضوا أعمارهم عبيداً للنفسانية عبودية لا ترتضي عتقا.

والحـــال أن الذين جعلـــوا الأناضول وطنـــاً -وابتداءً من الخلفاء الراشـــدين- خلفوا آثاراً تجتاز باعتبـــار نتائجها الدُّنَى لتصـــل إلى العقبى وتتحدى العصور، في نظر الذين لا ينخدعون بالخسوف والكســـوف المؤقت. نعم، عاش هؤلاء عمراً زاخراً ثم رحلوا، ولكن لن يغادروا الصـــدور التي يحيون فيها بذكرى مآثرهـــم الجميلة. وما زالت أرجاء بلادنـــا تعبق بروح ومعاني "آلب أرسلان" و"ملك شاه" و"الغازي عثمان" و"محمد الفاتح"، وتسيل الآمال والبشرى من غايات خيالهم وأملهم إلى أرواحنا.

لقد سحق القيصر حلم روما من أجل هواه ورغبته، وحبس نابليون آمال فرنسا الكبرى في شِـباك أطماعه فقتلها، وافترس هتلر أحلام ألمانيا الكـــبرى بمغامراته فقضى عليها بالموت. لكن فكر هذه الأمة المتفتحَ على الديمومة والتمادي، والمتّصفة بطولاتُه بالتكامل والاســـتمرارية، بقي مصاناً من كل إسفاف، ومعززاً كراية تُفدَى بالأرواح، ســـواء في الانتصـــار أو الانقهار. محمد الفاتح فتح إســـطنبول تحت تلك الرايـــة ودَوّى صرخة في آفاق الغرب. وســـليمان القانوني رحل إلى "الأبعـــاد" مالئاً عينيه من خفقات ذلك اللواء الوارف على سفوح الغرب. وأبطال "جناق قلعة" كتبوا بدمائهم ملحمة مثل ملحمة "بدر" باسمه، ووفّى ابن الأناضول دَيْن الوفاء الأخير له، وهو محاصَر بألف قحط وقحط، فَزَأَرَ كرة أخرى زئير قلبِ تاريخنا المجيد: "أبدية المدة!.."[1].

سمات رجل الفكر

يَبْلُغُ الفكرُ على يد رجل الفكر مقاماً فوق المقامات، ويصير سحراً للظفر بعد الظفر، وللنجاح بعد النجاح. فإن لم يكن ممثلو الفكر أهلاً لحمله، فيَبْعُد ذلك الفكر أن يكون راية، ويغدو رمزاً صغيراً يجمع حوله سفسافَ صيحاتِ المطامع الدنيئة. إن رموزاً صغيرة كهذه قد تجمع حولها أولاد الأزقة وتقودهم إلى أهداف وغايات من لُعَب. لكنها لن تروِي غليل المشاعر في أعماق أمتنا المجيدة.

إن رجل الفكر بطل للحب قبل كل شـــيء. فهو يحب الله حباً كحب مجنون، فيحس في ظل أجنحة الحب هذا بوشـــائج وثيقة تربطه مع الكائنات. فيحضن بشـــفقةٍ كلَّ إنسان، وكل شـــيء... ويضم إلى صـــدره وطنه وابن وطنـــه بحب يبلغ حد العشق... ويداعب ويشم الأطفال كبراعم للمستقبل... ويبعث في الشـــباب روح الاستحالة إلى إنســـان مثالي، إذ يحثهم على بلوغ الغايات الســـامية... ويُكرم ذوي الشيبة بأخلص التوقير والاحترام... وينقب عن ســـبل للحوار مع الجميع... ويقارب بين شـــرائح المجتمع المختلفة بمدّ جســـور مبتكرة فوق المهاوي السحيقة الفاصلة بينها، ويضطرم حراً من أجل الملاءمة التامة بين الشرائح المتوافقة نسبياً.

ورجل الفكر الحقيقي هو مـــن أهل الحكمة أيضاً. فهو من وجهةٍ يستوعب كل شيء بدُنيا عقلِه المحيطة سائحاً ومستطلعاً، ومن وجهة أخرى يزن كل شـــيء بموازيـــن القلب المقدِّرة حق التقديـــر، ويمررها عبر مقاييس المحاســـبة والمراقبة، ويعجنها في معجنـــة المحاكمة، ويصورها، ويقـــارن في كل وقت بين ضياء العقل ونور القلب كفرسي رهان في المضمار.

ورجل الفكر أنموذج للشعور بالمسؤولية إزاء مجتمعه. يضحي بكل ما وهبه الله، ومن غير تلكؤ وتذبذب، في ســـبيل أهدافه، وأول أهدافه كسب رضاء الله... ولا يخاف ولا يخشى من شيء، ولا يهب قلبه إلا لله وحده... و لا يبالي برغب إلى السعادة، ولا بقلق من شقاء. لأنه بطل أسطوري للمعنى إلى درجة لا يأبه فيها بالاحتراق في نار جهنم، ما دام فكره ووطنه سامقاً وعاليا.

ورجل الفكر الراقي يستشعر التوقير للقيم التي وَهب لها قلبه استشعاراً عميقاً كعمق المراقبة، ويمارسه بنشوة كنشوة العبادة، ويعيش دائماً رجل عشق وحماس لا يفتران. ويعلم كيف يضحي في سبيل فكره بالنفس والحبيب، والمال والجاه، والأهل والعيال، واليوم والغد، في آن كلمح البصر ومن غير توان، ويرجح دائماً وجهة فكره الســـامي مع مراعاة الحق والحقيقة بتدقيقٍ يشـــطر الشـــعرة أربعين شـــطراً. وهو حاكم على نفسه، ومحكوم بيد الحقيقة، وغير مبالٍ بالمقام والمنصب، وخائض في كفاح مستمر

في أعماق قلبه معتبرا الشهرة والطمع وحب النفس والرغب إلى الراحة وأمثال هذه الأمور سماً قاتلاً. ولذلك يفوز أبداً في ميادين الظفر، ويحول مواقع الهزيمة ساحات تدريب فني للفوز والنجاح.

وهو في سلوكه طريقَ السامقين مشدود شداً وثيقاً بموازين الحق تعالى... حتى إذا صدمته عواصف الرغبات استقوى واشتد فيه حب الحق، وإذا توجه إليــه طوفان الحقد والبغض، أثار في روحه فوارات الحب والشــفقة... وكــم نعمةٍ يهفو إليها عامة البشــر يتجاوز هو عنها ماضياً في سبيله، وكم نقمةٍ يتصدى لها بصدره. وإذ نتخيله بآفاقه الحقيقية التي تذهل العقول، يطوف أمام عيوننا أطياف العزائم النبوية، وتنهمر على أحاسيسنا صور بشر فوق البشر من وَلَجات الأبواب التي تُفَرِّجها التداعياتُ، ويفعم بيت خيالنا بالبطولات التاريخية... يطفح ويفيض، فيرتعش بوفاء وإخلاص عقبة بن نافع في صحارى أفريقيا، ويذهل لشــجاعة وحماس طارق بن زياد الــذي يخلف وراءه "برج هرقل"[2] أثراً بعد عين، ويتطلع دهشــاً إلى عزم وإقــدام محمد الفاتح، ويُقَبّل السيف الذي أبى الاستسلام في "بَلَونة"، ويسلم –تعظيماً– على أُســود "جناق قلعة" الذين استقبلوا انفلاق المدافع والقنابل فوق رؤوسهم بالبشر والسرور.

عظماء القلب والروح

ولسنا بحاجة اليوم إلى هذا وذاك، بل إلى أمثال هؤلاء من رجال الأفق الرحيب المثاليين بشــخصياتهم الســامقة. وسيتحقق في الســنوات القابلة انبعاث أمتنا وبناؤها من جديد على يد هؤلاء من أهل الروح والمعنى ورجال الفكر الســامق. هؤلاء الشجعان الذين خميرة وجودهم هو الإيمان والعشــق والحكمة والبصيرة، لم ينحنــوا أبداً أمام زخم الهجمات الداخلية والخارجية على مر القرون التســعة أو العشرة الأخيرة، ولم يتزعزعوا. ربما انكمشوا شــيئاً قليلاً أو ضاقوا، لكنهم اكتســبوا صلابة البنية، فتماسك قوامهم إلى درجة كافية لتصفية الحساب مع المستقبل. وهم اليوم جاهزون لاســتلام "النوبة" بقوة الروح الخارقة للعادة، يتطلعون إلى العصر بأبصارهم في ترقب نشط.

نعم، في القرون الأخيرة، شــهد العشق والحكمة والبصيرة وحس المسؤولية ضموراً وانكماشــاً، وجاءت المسائل اليومية الطفيفة لتقعد في مكان فكر "الأمة". فلا يمكن الادعاء –بداهة– بحصول "تجديد" في هذه المرحلة. وما طرح في الســاحة باســم "التجديــد" في هذه المرحلة لا يتجاوز التقليد الوضيع والدبلجة. هذه النمطية التي تلبست بســببها فكرة "القومية" بلباس الفسق وهدمــت روح "الأمة" كاملة قد أضرت أكثر مما نفعت. وبينما كانت الأمة تنــزف بسبب التخريب والهدم الواقع في جسمها لم يُعرف الداء الحقيقي، ولم تُكتشــف طرق المداواة، وأصابت المعالجات الخاطئة جموع الناس بالشــلل. ولا زالت آثار نوبات الحمّى لمرض القرون الأخيرة تشعرنا بدوام العلة، لاستمرار فورانه الدافع "عن المركز".

لذلك، ســنقع اليوم أيضاً كما في أمسنا في خطأ بعد خطأ ونحن نبحث عن دواء، وسنصاب بنوبات أشد خطرا، وسنعجز عــن الانفلات من دائرة الأزمات الفاســدة، مــا لم نتبصّر في الأســباب الحقيقية للمعضلات، ولم نعالج عللنا الفردية والعائلية والاجتماعيــة بحذاقة الحكيم، ولم نخرج من مســتنقع اللوثيات الذي نضطرب فيه منذ عصور.

ولئن أصَرّ الذين يمســكون بالعنان على عنادهم الدائم عدة قــرون، فنحن نؤمن يقينا بأن أجيال الفكر المثالية المتوجهين نحو المستقبل بحســهم وفكرهم وعملهم الحركي، المحبين لرسالتهم ووطنهم وإنســانهم بدرجة العشــق، المتوترين كوتر القوس في انشــدادهم إلى الخدمة والشعور بالمســؤولية، ستجتاز العقبات كلها وتنشــئ تكوينات جديدة. فلا بد أن يسري العشق الذي في جنباتهم وحبُّهم للخدمة، إلى شــرائح مجتمعهم كلها، فتشب براعم أينما سرى. وإذ يلغي هذا الفكر الواقعَ المادي والجسماني القائم، ويطرحه جانباً، لا بد أن ينقش كرة أخرى ديباج روحه الذاتي، حسب رؤيته الخاصة إلى العالم، وبرنامج حركته الذاتي.■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

الهوامش

(1) يومــئ المؤلف بــ"أبديــة المدة" إلى معان ثرة مكنونــة أو ظاهرة، ذات أبعاد عديــدة. ولعلنا نفيد في إيضاح بُعد من الأبعاد إن نبهنا إلى أن دول الإســلام العظمى في التاريخ كالدولة العباســية نعتت بدوام العز والسعد إلى يوم القيامة. وكانت الدولة العثمانية تنعت بــ"الدولة العَلِيّة الأبدية المدة". فهنا إشــارة إلى هــذا البُعد، زيادة على إيماءات أخرى مثــل أن الأمل في النهضة لم ينفَد، وأن الديــن خالد، وأن طبع الفداء لن ينقطــع، ولعل النهوض يبدأ من هذه البلاد. و"جناق قلعة" موضع شهد هذه المعركة الشهيرة في التاريخ، سطر فيها الجيش العثماني ملاحم فذة ورد جيــش الحلفاء على أعقابه في الحرب العالمية الأولى، وذلك كان في ١٨ مارس ١٩١٥. (المترجم)

(2) المقصود جبل طارق. (المترجم)



هل مِن تعارض بين الإسلام والتقدّم الحضاري؟

أ.د. أحمد عمر هاشم*

الإسلام هو دين العلم والمعرفة ودين التقدم الحضاري والعمران؛ ولا يأبى على أتباعه أن يصنعوا لأنفسهم وحياتهم ما يدفعهم قدماً إلى الأمام، بل إنه أمَر بإعداد القوة ليكون المسلمون أقوى وأقْدر على دفع كل عدوان يتربّص بهم الدوائر. قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾(الأنفال: ٦٠). كما أمر الإسلام أتباعه بالسير والنظر في ملكوت السماوات والأرض وما بثّ الله في ملكوته من آيات.

ومعلوم أن الحضارة الإسلامية التي تبوّأت مكانتها العالمية على ظهر الأرض لم تكن وليدة الصّدفة ولم تنبعث من فراغ، وإنما أخذت وضعها في المجتمعات الإنسانية، لأنها قامت على فكر مستنير استمدّ رشده وهداه من ينابيع الإسلام الأصيلة.

فقد منح الله تعالى الإنسان عقلاً مفكراً يميّز به بين الحق والباطل وبين الخير والشر، وليفكر ويتدبر ويبحث وينقّب ويكتشف ويتقدم في هذا الكون الفسيح.

المنهج التجريبي عند المسلمين

وإلى جانب هذه المنحة الربانية –وهي العقل– منح الله سبحانه وتعالى الإنسان سمعًا وبصراً وفؤاداً وجعله مسؤولاً عما منحه إياه فقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(الإسراء:٣٦).

وقد اضطلع رجال أفذاذ من أمّتنا الإسلامية بمهمّة البحث والاكتشاف، وكانت لهم مناهجهم التجريبية التي اعترفت بها أوروبا ولا تزال مَدينةً لهم حتى الآن، ومن هؤلاء: الرازي وابن سينا في الطب، والكندي في الرياضيات، وجابر بن حيّان في الكيمياء، وابن الهيثم في الطبيعة.

ويقول الأستاذ بريفولت في كتابه "بناء الإنسانية": "ليس لروجيه باكون ولا لفرانسيس باكون الذي جاء بعده الحقّ في أن يُنسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي؛ فلم يكن باكون إلا واسطة من وسطاء العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا، وهو نفسه لم يملّ قط من التصريح بأنّ تعلُّم معاصريه في أوروبا اللغة العربية وعلوم المسلمين هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة".

تلك كانت نظرتهم، وذلك اعترافهم، وإلى أي مدى أدركوا أهمية اللغة العربية كطريق للمعرفة الحقة. أين هذا من إهمال الكثير من العرب للغتهم، وأين هذا من أولئك الذين يدعون للعامية؟! بل ويتحدثون بها ويهجرون اللغة العربية في الكثير من الأحاديث في وسائل الإعلام المختلفة؟ وأين هذا من الأمّية التي فشَتْ في بعض المواقع ولا تزال؟!

نعمة العقل

لقد آن الأوان أن يقضى على الأمية وأن يأخذ المسلمون طريقهم إلى العلم والمعرفة وإلى الثقافة الأصيلة والحضارة الإسلامية العريقة التي أسّسها أسلافُنا.

إن المسلمين إذا تأخروا فهذا نتيجة إهمالهم وتفريطهم في تراثهم وليس الذنب ذنب الإسلام؛ فالإسلام هو دِين العلم، حثَّهم عليه وأمَرهم بالبحث والنظر. وأولى آياته: ﴿اقْرَأْ﴾(العلق:١) دعوة للعلم والمعرفة، وقد جعَل اللهُ تعالى لهم الأرض مَهدا وسلك لهم فيها سُبلاً. ولطالما تفشت دعاوى زائفة أثارها أعداءُ الإسلام في القديم وفي الحديث بأن الإسلام يتعارض مع التقدّم الحضاري وأن المسلمين متأخّرون. وقد وضح لنا مما سبق كيف حثّ الإسلامُ أتباعَه وجعلهم مسؤولين عمّا منَحهم به من نعمة العقل والسمع والبصر والفؤاد.

وكم انطلقت دعاوى أخرى تقول بضرورة أخذ الحضارة الحديثة بحذافيرها، ودعوات ينادي أصحابها برفض الحضارة الحديثة، وآخرون يرون أنهم معتدلون فيأخذون منها الصالح ويتركون غيره. ولكنها آراء إذا طرحت على بساط البحث والمناقشة لا يبقى منها شيء؛ فالقول بأخذ الحضارة الحديثة جملةً مرفوض، لأن فيها ما ليس بصالح. ولأن فيها ما يتعارض مع روح أمة لها شخصيتها ومكانتها.

والقول بتركها جملةً لا يتفق أيضا بحال، إذ إن هناك أشياء في تلك الحضارة أصبحت من ضرورات الأفراد والمجتمعات. والقول بأخذ الصالح منها أيضا لنا عنده وقفة، لأن تحديد الصالح وغير الصالح سيختلف من عقل لعقل ومن فكر لفكر ومن بيئة لبيئة. نقف بعد ذلك لنقول: فما الحلّ؟

والإجابة على هذا أن في الإسلام –كما سبق– نهوضا وتقدما، وأن العقل الإسلامي يدين له العالم الحديث بحضارته، فلْيَسِرْ الفكر الإسلامي المستنير بعلمائه وخبرائه، وليأخذ مسيرته الموفقة موصولة من الخلَف بالسلف. وليس في الإسلام تعارض بحال من الأحوال مع الحضارة والتقدم والنهوض، بل إنه أمَر بالسير والنظر والعلم والمعرفة كما سبق. فالحضارة المادية والحياة المعملية بمخابرها وأدواتها وكل أجهزتها ومعاملها وصناعتها لا تتنافى مع الإسلام بل تتفق معه ويدعو إليها.

الحضارة الإسلامية ومصادرها الثقافية والفكرية

وأما ما يتصل بالفكر والثقافة فإن لنا أصول ثقافتنا التي ترتكز على الوحي الإلهي فيما يتصل بالشؤون الدينية. والوحي الإلهي مصون من أيّ زلَل أو شطط لأنه معصوم، وأما الفكر البشَري فهو قابل للخطأ والصواب؛ فمَن حاول أن يأخذ من غير أصول الإسلام ضلَّ، وما تسرّب الغزو الفكري إلى البيئة الإسلامية إلا في فتَرات الضعف التي انتابت الأمة فترات وفترات.

وواضحٌ أن القرآن الكريم دستور حياة وتبيان لكل شيء وهدًى ورحمة للعالمين، كفل للبشرية سعادتها دنيا وأخرى؛ فمَن حاول التقدُّم عن غير طريقه ضلَّ ضلالا مُبينا. وفي الحديث: "ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله" (رواه الترمذي). وللسنّة النبوية المشرّفة فضلها؛ فهي مفصِّلة لمجمَل القرآن وموضِّحة لمبهمه

ومقيّدة لمطلقه ومخصّصة لعامه وشـارحة لأحكامه. وفيهما معًا الأمانُ مـن الفتن ما ظهر منها وما بطن، والأمانُ من الانحراف والضلال، كما قال الرسـول ﷺ: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتابَ الله وسـنَّتي" (رواه الحاكم).

وإن في القرآن والسنة غناء للفكر الإسلامي وللثقافة الإسلامية، يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(العنكبوت:٥١). وقد حذّر الرسـول ﷺ من الخروج عن دائرة الكتاب والسنّة وأرسى مناهج الحياة الثقافية الإسلامية الصحيحة حتى لا يتخبّط أحد في دياجير الظلمات الفكرية أو التيّارات المغرضة.

عـن جابر بن عبد الله ﷺ أنّ عمر بن الخطّاب ﷺ أَتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكُتب، فقرأه النبي ﷺ فغضب فقال: "أَمتهوّكون [أي متشـكِّكون] فيها يـا ابن الخطّاب؟! والّذي نفسـي بيده لقد جئتكم بها بيضاءَ نقية، لا تسألوهم عن شـيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدّقوا به. والذي نفْسي بيده لو أن موسى عليه السلام كان حيا ما وسعه إلاّ أن يتّبعَني" (رواه أحمد). هذا فيما يتعلق بالدين والعبادة وأمر الثقافة الإسلامية.

الابتكار والتقليد

أما ما يتعلق بعالم الصناعات والمكتشفات الحديثة، فالإسلام حثّ على أخذ العلم والتقدم والحكمة حيث وُجدتْ؛ "فالحكمةُ ضالّة المؤمن أنّى وجدها فهو أحـقّ بها" (رواه الترمذي)، لا يعنيه من أيّ وعاء خرجَت. وقد أمَرنا ديننُا أنْ نأخذ النّافع وأن نطرح الضارّ، وقال رسـول الله ﷺ: "لا يكن أحدكم إمّعة يقول: إن أحسن الناسُ أحسنتُ وإن أساؤوا أسـأتُ، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تُحسنوا وإن أساؤوا فلا تَظلموا" (رواه الترمذي).

ومِن أهمّ ما يتميز به التقدّم الحضاري في ظل الإسلام هو أنه يعمل على الاسـتقرار والأمان والتواصل والتعارف بين الجميع. قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات:١٣). والتقدم الحضاري في ظل الإسلام لا ينحو إلى الصراع أو الصدام، بل إلى التعـاون والتدافع، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾(البقرة:٢٥١).

ويسـعى التقدم الحضاري في ظل الإسلام إلى البناء والتعمير وليـس للهـدم أو التدمـير، لأن الحضارة الإسـلامية لم تَقُم كالحضارات الأخرى على الجانب المادي فحسـب، بل قامت على الجانب الروحي والديني والقيمي مع الجانب الماديّ في توازن واتّفاق وانسجام ودون أن يطغى جانبٌ على جانب آخر.

ولذا يشـهد التاريخ أن المسلمين لم يكونوا طرَفا في الحروب العالمية، لأن الإسلام هو دين السلام ويدعو الناس أن يدخلو في السِّلم عامّة.

التعايش السلمي والحضاري

ومما لا شك فيه أن للقيم الدينية والمبادئ الإسلامية الروحية أكبر الأثـر في صيانة الحضارة من أيّ شـطط، وإنما الدعوة بالحكمة والموعظة الحسـنة والمجادلة بالتي هي أحسـن والعمل من أجل الصالح العام؛ لأن الرسالة التي تسير في ضوئها هي رسالة الرحمة، ولأن الرسول ﷺ جاء بالرحمة، بل هو نفسه رحمةٌ مُهداة ونعمةٌ مُسداة مَنّ الله ﷻ به على المؤمنين وبَعَثه رحمةً للعالمين، وقال رب العزة جلّ شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧).

وإذا كانت عظمة الحضارة الإسـلامية على هذا النحو، فإن سـيادة هذه الحضارة وريادتها فيها الأمان الحقيقي للعالم المفزع بالحروب، وفيها التعايش السِّـلمي والحضاري، حتى لا يخدعنا الانبهار بغَيرنا.

إنّ لدى أمّتنا مخزونا ثقافيا ومشـروعا حضاريا يتضمن كل خصائص الثبات والاستقرار على هُويتنا وعدم الذوَبان في الآخَر، ولكـن المهمّ هو العمل والإخلاص ومضاعفـة الإنتاج والتقدمُ العلمي والحضاريّ الذي حثّ عليه الإسـلام؛ لأن الأنسـاق الثقافية لحضارتنا تتميّز بأنها إنسـانية وعالَمية، جوهرها الرحمةُ والبرّ والتعايش والتسـامح والأخوّة التي تَحمي حقوقَ الإنسان وتصون كرامةَ كلّ آدميّ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠).■

(*) رئيس جامعة الأزهر السابق / مصر.





لولا القمر

نوري بالطه*

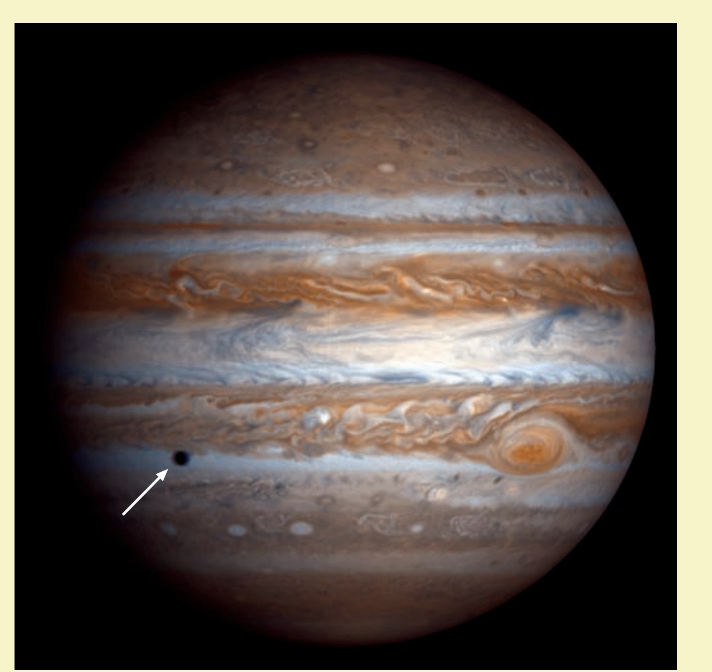
ماذا كان يحدث لو لم يكن القمر موجوداً؟ وما التأثير المتوقع لغياب القمر وعدم وجوده على الأرض وعلى المناخ وعلى ملايين أنواع المخلوقات التي تعيش على سطح الأرض؟ وماذا كان يحدث لو أن كتلة القمر كانت أكثر أو أقل من كتلته الحالية؟ وهل هو مجرد كتلة من الصخر وضع عشوائيا في مدار حول الأرض؟

من الممكن طرح المزيد من الأسئلة في هذا الصدد. لذا قام الباحث الفلكي "نايل كومنس" (Neil Comins) من جامعة (Main) في الولايات المتحدة الأمريكية بوضع كتابٍ شرح فيه مصير الإنسان لو لم يكن القمر موجوداً! وهذا الفلكي يرى أن من بين ملايين العوامل التي ساعدت على ظهور وإدامة الحياة في هذا الكوكب الفريد الذي يبدو حتى الآن أنه الوسط والبيئة الوحيدة التي ظهرت فيها الحياة هو وجود توازن دقيق بين الأرض والقمر. وكما لا تقع أي حادثة في الكون نتيجة مصادفات عشوائية، كذلك فإن القمر خلق كعنصر توازن دقيق إلى درجة أنه يمكن القول بأنه لو لم يكن موجوداً لاستحال ظهور الحياة في الأرض. وجاء في القرآن: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾(الرحمن:٥).

والقمر الذي ليس له جو غازي عبارة عن كرة من الصخر يعلوها التراب وفوهات البراكين، وهو التابع الوحيد للأرض.

ويبلغ نصف قطره ربع نصف قطرها تقريباً، وحجمه ١/٥٠ من حجمها تقريباً، وكتلته ١/٨٠ من كتلتها تقريباً ويبعد عن مركزها مسافة ٣٨٥ ألف كم. ويتم دورة كاملة حولها في ٢٩,٥ يوماً. ومع أن الغموض يكتنف وجوده وخلقه فإن النظرية المقبولة حوله هو أن كوكباً سماه الفلكيون كوكب "ثيا" (Theia) تبلغ كثافته عُشر كثافة الأرض اصطدم بها. ونتيجة لهذا الاصطدام انفصل جزء من ذلك الكوكب وانقذف إلى الفضاء. وعادت هذه الكتلة المنقذفة التي استطالت وتغير شكلها بعد الاصطدام واصطدمت بالأرض مرة أخرى بعد أن دارت حول الأرض.

في هذا الاصطدام الأخير ترسب لب كوكب "ثيا" الذي كان عبارة عن عنصر الحديد إلى مركز الأرض، أما غلافه الخفيف الذي كان عبارة عن صخور خفيفة فقد انقذف إلى الفضاء. وبمرور الوقت اجتمعت هذه القطع الصخرية وكونت القمر. كان القمر في بادئ الأمر على محور يبعد عن الأرض ٢٢ ألف كم فقط. وبمرور الوقت ابتعد هذا المحور حتى وصل إلى بعده الحالي الذي هو في المتوسط ٣٨٥ ألف كم.



المد والجزر

إن أهم تأثير يجريه القمر على الأرض هو في مسألة "المد والجزر". وحسب قانون الجاذبية العام فإن كل كتلتين تتجاذبان بقوة طردية مع مقدار حاصل ضرب الكتلتين وعكسيا مع مربع المسافة بينهما. وتؤدي قوة الجاذبية الموجودة بين الأرض والقمر إلى مد في مياه البحار والمحيطات ثم في انخفاضها، وذلك لأن قوة التلاصق الموجودة بين البحر والبر ضعيفة (قوة التلاصق الموجودة مثلا بين القدح والماء الموجود فيه هي التي تؤدي إلى بقاء مقدار قليل من الماء في القدح بعد سكب الماء منه). ويحدث هذا المد والجزر حسب موضع القمر. ويعود ثلث المد والجزر إلى تأثير جاذبية الشمس، والباقي إلى تأثير جاذبية القمر.

نتيجة لحادثة المد والجزر يبتعد القمر عن الأرض كل عام بمقدار ٤ سم تقريباً. ولكي يتم الحفاظ على نفس مقدار العزم الزاوي (Angular Momentum) في نظام (الأرض– القمر) تزداد فترة دوران الأرض حول نفسها بمقدار ٠,٠٢ ثانية كل عام. وتبين الحسابات العلمية أن الفترة الحالية لإكمال الأرض دورة واحدة حول نفسها تساوي ٢٤ ساعة تقريباً، بينما كانت هذه الفترة عند بداية خلق القمر ٨ ساعات فقط، ثم استطالت هذه الفترة بمرور الزمن حتى وصلت إلى قيمتها الحالية. ولولا القمر لبقيت فترة الدوران ٨ ساعات بسبب عدم وجود المد والجزر. وهذا يعني دوران الأرض حول محورها بسرعة تبلغ ثلاثة أضعاف سرعتها الحالية.

القمر وقوة تأثيره

إن دوران أي كوكب بسرعة حول محوره يؤدي إلى شدة هبوب الرياح على سطحه. مثلا نرى أن كوكب المشتري وكوكب زحل يكملان دورة واحدة حول نفسيهما في مدة ١٠ ساعات تقريباً، لذا تتولد هناك عواصف قوية تبلغ سرعة هبوبها ٥٠٠ كم/ساعة في الاتجاه "الشرقي – الغربي". ومن شدة هذه العواصف فإننا نستطيع مشاهدة غيوم الغبار المثار في جوهما نتيجة هذه العواصف الشديدة بالمنظار المقرب (التلسكوب).

النقطة السوداء التي نشاهدها في الصورة أعلاه التي أخذت لكوكب المشتري من التلسكوب الفضائي "هوبل" هي ظل أقرب تابع له وهو تابع "إيو". وعندما يدور المشتري حول نفسه ويتم دورة كاملة في ١٠ ساعات فإنه يسحب غلافه الجوي معه. ونتيجة هذا السحب تتولد عواصف في اتجاه الخط الموصل بين

الشـــرق والغرب. أما الحُزم الداكنة والحزمة البيضاء الظاهرة في الصورة فهي تبين اتجاه الرياح في كوكب المشتري.

لو لم يكن القمر موجوداً لزادت سرعة دوران الأرض حول محورها وزاد بالتالي مقـــدار الفروق في درجة الحرارة بين البحر واليابســـة، ولزادت نتيجة لهذا ســـرعة الأعاصير التي ستهب في اتجاه الخط الموصل بين الشرق والغرب حتى تصل إلى ١٦٠ كم/ساعة. وهذا يعني ظهور ظروف غير مواتية للإنسان وللحيوانات التي تملك تركيباً معقداً.

فمثلاً ســـتتعذر نشاطات إنسانية مهمة مثل المحادثة. ونظراً لأن اليوم ســـيتقلص إلى ٨ ساعات فقط فإن الساعة البيولوجية للإنســـان وللعديد من الأحياء ستتشـــوش وتتعقد نتيجة الفرق بين هذه الســـاعة وســـاعات اليوم آنذاك، ويظهـــر العديد من الاضطرابات شيئاً فشـــيئاً. ونظراً لعدم وجود القمر يصبح المد والجزر ضعيفاً جداً، وتنعدم بالتالي الظروف الملائمة والضرورية للعديد من الأحياء المائية.

يســـاهم القمر أيضاً في كـــون دوران الأرض حول محورها بزاويـــة قدرها ٢٣,٥ م°. وكما هو معلـــوم فإن هذا الميل هو الذي يســـاعد على ظهور المواسم الأربعة، وعلى استلام المنطقة الاستوائية والمنطقتين القطبيتين مقادير متوازنة من أشعة الشمس. وهكذا يســـاهم القمر في تأمين الشروط المناخية الملائمة للأرض ولاستمرار الحياة.

وظائف أخرى للقمر

التأثير الآخر للقمر على الأرض هو قيامه بعكس الضوء الآتي إليه من الشـــمس إلى الأرض. وهذا يؤدي إلى زيادة حرارة الأرض بمقـــدار ٠,٢ م°. كما يقوم القمر بوظيفـــة درع واقٍ للأرض من النيازك والشـــهب. فلو لم يكن موجـــوداً لزاد عدد النيازك والشهب التي تقع على الأرض.

يقوم المجال المغناطيسي الذي يحيط بالأرض برد معظم الأشعة الكونية القاتلة المنهمرة نحو الأرض. أما الجزء القليل الذي يصل إلى الأرض فيســـاعد في لعب دور مهم في التفاعلات الكيميائية الجارية على الأرض وفي الغلاف الجوي.

ولولا القمر لزادت سرعة دوران الأرض كما ذكرنا ولزادت سرعة دوران الكرة الســـائلة الموجودة في مركز الأرض بالنسبة للغـــلاف الخارجي للأرض ولتغيرت بنيـــة الغلاف الجوي وقوة المجال المغناطيسي له. وهذا يؤدي إلى نتائج سلبية بالنسبة للعديد من المخلوقات التي تســـتخدم هذا المجال المغناطيسي مثل بعض البكتريات والطيور والأسماك المهاجرة وسلاحف البحر وأسماك السلمون، أي لاختلف العديد من النظم المناخية والحياتية.

القمر تقويم زماني وحسابي

وكما هو معلوم فقد لعب القمر والشمس دور التقويم في التاريخ الإنســـاني، وقد ورد في القرآن الكريم ﴿وَجَعَلْنَـــا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَـــةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّـــنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾(الإســـراء:١٢)، أي إن الله تعـــالى يلفت أنظارنا إلى هذه الوظيفة التي يقوم بها القمر والشمس.

يعد القمر أكبر تابع معروف للكواكب في المنظومة الشمسية، إذ تبلـــغ كتلته ١,٢٣٪ من كتلة الأرض، فهو يلعب دوراً مهماً في تحقيق التوازنات الدقيقة الموجودة للأرض وفي تأمين ظروف ملائمة لظهور الحياة ودوامها. وإذا دققنا النظر في دوره وتأثيره على الأرض ظهر لنا أنه خلق خصيصاً لحياتنا على الأرض.

والحاصـــل أن القمر قد كلف بمهـــام ووظائف مهمة نتيجة حســـابات دقيقة من قِبل مـــن قال: ﴿وَالسَّـــمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾(الرحمن:٧). ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

المصادر

(1) Neil Comins, “What If the Moon Didn’t Exist? Voyages to Earths That Might Have Been”, New York, Harper Collins, 1993.

(2) Marcus Chown, “The Planet That Stalked the Earth”, New Scientist 14 Augst 2004.

(3) Paul D. Spudis, “Moon”, World Book Online Reference Center, NASA, 2004.

(4) Tony Phillips, “What Neil & Buzz Left on the Moon”, Science, NASA 2004.

(5) Richard Ray, “Ocean Tides and the Earth’s Rotation”, IERS, 2001.

(6) John Gribbin, “A Mysterious Monthly Temperature Cycle,” New Scientist, 28 January 1995.



القرآن روح الكون ومعراج التعرف إلى الله

أ.د. فريد الأنصاري*

1

إن هذا الكتاب المرسوم بالقرآن كتابٌ غير عادي تماماً. إنه كلام من طبيعة أخرى، وخطابٌ من عالم آخر. ولكن العادة تضعف الحس البشري؛ فليس لنا معشر البشر إلا الوقوف على ضفافه الفسيحة، وتَلَقِّي أمواجه بصدورنا، نتذوق من خلالها مواجيد الإيمان، ونشاهد سُبُحات الجلال والجمال.

إن هذا القرآن الكريم ينبئ عن نفسه ويعرف بطبيعته وماهيته. إنه يتكلم إلى الإنسان من خلال بعده الكوني، ومصدره الرباني. ومن هنا فإنه أعمق من أن يحيط به الإدراك المادي المجرد: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(الشورى:٥١) ولذلك فإن أسرار آياته ترتبط جميعا بحقائق الكون. فهو فهرست الوجود، والكشاف الجامع لكل موجود، إذ هو ينتمي إلى عالم "الأمر" ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾(الشورى:٥٢). إنه يمثل في حقيقته وفي وجدان المتبصر لبصائره روحَ الحقائق كلها، فلا حياة لها إلا به.

إن عظمة القرآن تتمثل أساسا في أنه "كلام الله رب العالمين". إن ما يبهر الإنســـان من ذلك ويفيض مشـــاعره أن القضية هي من العظمة والرهبة بحيث يســـتحيل على القلب البشـــري تحمل مواجيدها، بدءاً بالتفكر في هذا الكون الشاسع الممتد من فضاءات لا يحدهـــا بصر ولا تصور ولا خيال، وما يســـبح فيه من نجوم وكواكب ومجرات وسدم غائرة بعيدة بملايين السنوات الضوئية، وما يحيطها من سماوات بعضها فوق بعض، وما يعمرها من خلائق نورانية مما لا يُدرك له شـــكل ولا صورة، إلى ما بين هذا وذاك من طبقات الزمان المختلفة عدّاً وتقديراً، من الأيام والســـنوات، قد يختزل اليومُ الواحد منها ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(السجدة:٥)، إلى ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَـنَةٍ﴾(المعارج:٤). وربُّ هذه العوالم جميعاً، الخالق لها، والمحيط بأزمنتها وأمكنتها كلها، المدبر شؤون حياتها ومماتها وأرزاقها، بقيوميته الممتدة من الأزل إلى الأبد، المالك زمام أحوالها بأنوار أسمائه الحسنى وصفاته العلى ﷻ، هذا الرب الرحمن الرحيـــم والملك العظيم المتنـــزه في مطلـــق علوه وسموه وجلاله وكبريائه؛ يقدر برحمانيته ورحمته أن يكرم الإنسان هذا المخلوق الضعيف القابع في الأرض، هذا الكوكب الضئيل السابح في بحر عظيم زاخر بأمواج السدم والمجرات، فيكون من أعظم مقامات هذا التكريم أن يخاطبه بهذا الكلام الإلهي العظيم: القرآن الكريم!

فكيف للنســـبي الفاني إذن أن تتحمل مواجيدُه كلام المطلق الباقي؟! كيف للقلب المحكوم بالزمان والمكان أن تستوعب خفقاتُه المعدودة وأنفاسُه المحدودة وقْعَ الكلام الخارق للزمان والمكان؟!

وإن الله إذا تكلم ســـبحانه تكلم من علٍ، أي من فوق؛ لأنه العلي العظيم ﷻ، فهو فوق كل شـــيء، محيط بكل شيء علما وقدرة، إنه رب الكون: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾(فصلت:٥٤). ومن هنا جاء القرآن محيطاً بالكون كله، متحدثاً عن كثير من عجائبه، قال تعالى في ســـياق الكلام عن عظمة القرآن: ﴿فَلاَ أُقْسِـــمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُـــونَ عَظِيمٌ ۞ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِـــي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۞ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ۞ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الواقعة:٧٥-٨٠).

وهذا المقال يرمي إلى إبراز قضيتين:

الأولى: كون القرآن خطاباً كونياً بما هو روح من أمر الله.

والثانية: بيان أنه بذلك معراج للتعرف إلى الله جل علاه.

الأولى: كونية القرآن الكريم

إن معـــنى "كونية القرآن" لازم من لـــوازم كونه "كلام الله رب العالمـــين". فالربوبية قاضية بـــكل معاني الشـــمول والامتلاك والســـلطنة؛ ذلك أن "القرآن" من حيث هو كلام رب العالمين، متضمن لمعنى الربوبية الجامعة لكل عناصر الكون امتلاكا وقهراً. كما أن الكائنات من خلاله تدور جميعها حول هذا المعنى، سالكة إلى الله خالقهـــا، منجذبة إلى نوره تعالى. ولذلك كان القرآن - وهو خطاب الله إلى الإنســـان- خطاباً كونياً أيضاً. ويمكن بيان "كونية القرآن" من خلال الخصائص الثلاث الآتية:

أ-القرآن قراءة لكتاب الكون، وكشف لأسراره: ومعنى ذلك أنه كتاب كاشف للغز الحياة بصورة بسيطة. فهو يقدم الصعب المعقد تقديماً ســـهلاً ميسراً، فســـهل على العامة والخاصة قراءة مقاصده من خلال أبعاده الكونية؛ إذ يلفت انتباه الإنســـان إلى مظاهر الكون وحقائقه ليتفكر في خلق السموات والأرض، كل على حسب طاقته وسعة إدراكه. فيكون القرآن الكريم بكونيته هذه خطاباً لجميع الناس بجميع مســـتوياتهم الثقافية واختلافاتهم اللغوية والعرقية. وهو ضرب من ضروب الإعجاز. ومن هنا كان القرآن بحقٍ مفسرَ كتاب العالم.

ب-القـــرآن روح الكون: ومعنى ذلك أنه ما دام المتكلم به هو الله رب العالمين -بالاعتبار الذي ذكرنا- أي "خالق كل شيء" سبحانه، فإنه لا شيء إلا وهو راجع في حقيقة وجوده إلى حقائق القرآن الكونية. وما علمنا ذلك كله إلا من خلال القرآن الكريم الذي هو كلام رب العالمين الخالق لكل شيء. فالقرآن يمثل -من حيث حقائقه- حقائق الكـــون كله، بدءا بقصة الخلق إلى غاية الإعادة من يوم القيامة ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾(الأنبياء:١٠٤)، ثم البعث والنشور، فالمصير. فلو تُصُوّر عدم حقائق القرآن -وهو فرض محال- لاستحال تصور وجود العالم الكوني كله.

ثم إن حقائق القرآن التي هي التفسير السليم لنظام الكون، هي وحدهـــا القادرة على الحفاظ على ذلك النظام الكوني في العقل. ولو افترضنا تفســـيراً غيرها، لعمت الفوضى تصورات العقول، ولاختل التوازن في الفكـــر، بتصورات لا يمكن إلا أن تؤدي في النهاية إلى افتراضات تقضي في المنطق العقلي إلى اختلال الكون كله في التصور. وبهذا المعنى كان القرآن هو روح الكون.

جـ-القرآن محيط بمفهوم الزمان الكوني: إذا كان القرآن كلام الله رب العالمين، فإنه صفة له سبحانه؛ لأن الكلام صفة للمتكلم. وقد عُلم أن الله ﷻ محيط بالزمان والمكان. فهو فوق كل شـــيء ومحيط بكل شيء، لأنه تعالى خالق كل شيء. من هنا إذن كان

القرآن محيطاً بالزمان الكوني: الماضي والحاضر والمستقبل جميعاً، ثم بالزمان الأرضي، وهو الزمان بالتقدير البشري الدنيوي مما نعد به التاريخ والأعمار، وكذلك بالزمان المعراجي بنوعيه: الأمري والملائكي. فالزمان الأمري هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(السجدة:٥)، والزمان الملائكي هو المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(المعارج:٤). وكذلك الزمان العندي وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(الحج:٤٧).

ثم الزمان الأخروي وهو الزمان الخالد السرمدي الذي لا ينتهي أبداً مما يكون بعد إعادة الخلق، حيث قيام يوم الدين، من بعث وحشر وحساب وجنة ونار. فحديث القرآن عن ذلك كله حديث جامع مانع. ومن هنا كان محيطاً بكل الزمان، مما ينتسب إلى عالم الغيب أو إلى عالم الشهادة.

ذلك هو القرآن... كلام من أحاط بمواقع النجوم خلقا وأمرا وعلما وقدرة وإبداعاً. فجاء كتابه بثقل ذلك كله، أنزله على سيدنا محمد ﷺ، من بعدما هيأه لذلك وصنعه على عينه سبحانه جل وعلا، فقال له: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزمل:٥).

ومن هنا لما كذب المنكرون بالقرآن للقرآن، نعى الله عليهم ضآلة تفكيرهم وضحالته وقصور إدراكهم وضعف بصرهم عن أن يستوعبوا بعده الكوني الضارب في بحار الغيب، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(الفرقان:٥-٦) وإنه لرد عميق جداً. ومن هنا جاء متحدثاً عن كثير من السر في السماوات والأرض؛ قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾(الكهف:٥٤)، وقال جل وعلا: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾(فصلت:٥٣-٥٤).

الثانية: القرآن معراج التعرف إلى الله

إن أول مقاصد القرآن الكريم إنما هو تعريف الناس بالله، المتكلم بالقرآن. ولذلك جاء تعريف الله لذاته سبحانه بأسمائه الحسنى مباشرة بعد التنبيه على عظمة هذا القرآن -كما جاء في سورة الحشر- كأنه قال: اعرف القرآن أولاً تعرف الله. أَوَليس هو تعالى المتكلمَ بالقرآن؟ قال جل وعلا: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الحشر:٢١)، فقال بعدها مباشرة: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۞ هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الحشر:٢٢-٢٣).

إن الذي ينصت إلى خطاب الفطرة في نفسه يسمع نداء عميقا يترجم الرغبة في معرفة من أسدى إليه نعمة الوجود، ذلك الإنسان مفطور على شكر من وصله بمعروف. ومن هنا نخلص إلى نتيجة وهي "حق الخالقية" هو مفتاح التعرف إلى الله.

وهذه حقيقة قرآنية كبرى تترتب عليها أمور كبيرة في حياة الإنسان. ذلك أنه كلما نادى الله الناس في القرآن بالاستجابة لأمره التعبدي ناداهم من حيث هو خالقهم، هكذا، بهذه الصفة دائماً، وهو أمر مهم فيما نحن فيه من طريق المعرفة بالله، أي إنه تعالى يسألهم أداء "حق الخالقية"، هذه الصفة العظيمة لذاته تعالى، التي بها كنا نحن الناس هنا في الأرض نتنفس الحياة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٢١-٢٢)، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾(النساء:١).

هاتان آيتان كليتان من القرآن العظيم، تعلق الأمر فيهما بالعبادة والتقوى، وما في معناهما من الانتظام في سلك العابدين، وفلك السائرين إلى الله رب العالمين، إثباتاً لحق الله من حيث هو خالق للبشر. ولا يفتأ القرآن يذكّر بهذه الحقيقة باعتبارها مبدءاً كليا من مبادئ الدين والتدين، وأنها العلة الأولى منه، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥١) إنها آية كونية عظمى.. إنها مفتاح من مفاتيح فهم القرآن العظيم، وباب من أبواب معرفة الربوبية العليا.. قال تعالى في سياق الحجاج: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾(نوح:١٣-١٤). إنه تعالى ربط حقه سبحانه على عباده بمبدإ خلقهم أطوارا.. فكلما ازداد المنكرون تعنتا ازداد القرآن إفحاما في بيان تفاصيل الخلق. فتلك حجة الله البالغة إجمالا وتفصيلاً.

وكما كانت تلك هي حجة القرآن في الدعوة إلى العبادة،

وإثبات "حق الخالقية" لله الواحد القهار؛ كانت هي عينُها حجته في الدعوة إلى التوحيد ونفي الحق الوهمي للشركاء، وذلك كما في قوله تعـالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الروم:٤٠). وبهذا المنطق أيضا رد الله على المشركين، كما في قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(الأعراف:١٩١). وقوله سـبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾(النحل:١٧). فما كان هذا البيان والتفصيل لقضية الخلق ليكون؛ لولا أنها قضية كونية كبرى، ينبني عليها ما ينبني من مصير وجودي في حياة الإنسان، هذا المخاطب بها ابتداء.

إن "قضية الخلـق" تمثل مفتاح فهم الربوبية، إنها المبدأ الكلي الذي على أساسه خاطب الله الإنسان بكل أمر ونهي، بل إنها تمثل البنية الأساس لخطابه، الذي عليه يتفرع كل شيء، مما قرره في العقيدة والشـريعة على السواء. نعم، "حق الخالقية" إذن هو مفتاح التعرف إلى الله جل وعلا.

إن إحسـاس الإنسـان بوجوب هذا الحق عليه يخرجه من التيه الوجـودي، أو بعبارة قرآنية يخرجه ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(البقرة:٢٥٧). وأيّ ظلام أشـد من التصور العبثي للحياة! فبأي نفسـية يعيش الإنسان هذه الحياة وهو يرى أنها غايتها إلى العدم المطلق والفناء الرهيب، الذي ما بعده حياة؟!

إن السـالك حينما يذوق من معرفة الله لمعات وأنوارا يتعلق قلبه بحـب الله تعالى، لأنه هو الذي أوجـده وخلقه، وإنما يجد الجمال الحق في تلك المعرفة.. وإنما نرى جمال الله ﷻ في شعورنا القوي بجمال خالقيته تعالى وكمال قيوميته وحسن إجابته وكرم رعايته، وقرب رحمته وأنسه.

فلم يكن عبثاً إذن أن يتوارد ذكر الأسماء الحسـنى والصفات الإلهيـة العلا عبر كل فصول القرآن. فهي كالنجوم الدرية تتلألأ بالنور الرباني العظيم في تلك المسـافات جميعاً، ما بين السوابق واللواحق والقرائن، بما يجلي للعبد الذاكر جمال الله وجمال المعرفة به، فيعبّد له طريقها سالكة جلية. ولكن كل ذلك إنما يكون على قدر شـهود القلب وصفاء البصيرة وصدق الإقبال على الله عند الدخول في مشاهد الذكر والتلاوة للكتاب.

إن العبـد الذي أيقـن بمعرفة الله يفيض قلبـه بالمحبة، محبة كل شـيء، إذ يجد أخوة إيمانية في وجدانه مع كل شـيء من الكائنات، عدا من تولّى. فالكل مسـتغرق في عبادة الله سـائر إليه عبر مسـالك المحبة ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(الإسراء:٤٤). ولقد جعل الله لنبيه داود معجزةَ كشـفٍ لبعض ذلك، فكانت الجبال والطير تسبح بتسبيحه وتدعو بدعائه، في مجالس تفيض بالنور والجمال، تلتقي على موعد بالغدو والآصال، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ۞ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾(ص:١٨-١٩). إن الكون كله في وجدان المسلم مثل طيور داود عليه السلام، مجالس أنس وذكر تشعره بالأخوة الكبرى في السير إلى الله عبر أفلاك العبودية: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(الأنبياء:٢١)، فالمعرفة طريق لا تنفد تجلياتها، ولا تنتهي إشـراقاتها إلا بلقاء الله، حيث ينكشـف سر السـير إلى الله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(الحجر:٩٩)، ويرى العبد هناك بعين اليقين حقيقة الوجود الدنيوي من خلال وجوده الأخروي: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(ق:٢٢).

إن المعرفة بالله تملأ القلب أنسـا بالله، ثم أنسا بالحياة، وأنسا بالكون والكائنات، وأنسـا حتى بالموت الذي لن يرى فيه العبد المحب -إذ يقف عليه- إلا موعدا جميلا، للقاء جميل، مع رب جميل. فذلك ذوق الإحسان في قمة المشاهدات الإيمانية. وإنما "الإحسان أن تعبـد الله كأنك تراه فإن لم تكن تـراه فإنه يراك" (متفق عليه).

وعليه فإن هذا الإنسـان بما هو مخاطب بهذا القرآن أساسـا بأبعاده "الأمرية" المذكورة هو إنسـان "كوني" بامتياز. فهو لا يسكن الأرض إلا بقدر ما يسـكن الكون كلَّه حقيقة. وبما أن البشر شتى خلقا وتقديرا وسـعيا وتدبيرا، فقد كان هذا القرآن على نفس تلك السعة والشمول من الإمكانات المتصورة للنشاط الإنسـاني في الأرض على الإطلاق. ولذلك جـاء جامعا لكل معارج الكتب السـماوية السابقة بدون اسـتثناء؛ ففيه معارج إبراهيم ومعارج موسـى ومعارج داود ومعارج عيسـى ثم فيه معارج أخرى فُضْـلٌ تفرد بها القرآن الكريم لم تفتح قبله قط في التاريخ. وكل ذلك جميعه كان معارج لنبي هذه الأمة الرسـول الجامع المانع سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ.

إن هذا القرآن بعمقه الكوني هذا، المطلق عن الزمان والمكان يحقق أخوة إنسـانية كبرى، لا يمكن أن تتحقق على هذا الوزان بسواه؛ لأنه شبكة اتصال وجودية ذات أنسجة أفقية وعمودية، فيها مداخلُ لا حصر لها للإمكانات البشـرية. ولذلك فهو يتيح

لكل إنسان مهما كانت ميوله وإمكاناته الطبيعية والفطرية والاجتماعية والثقافية أن يتصل بحقائق الوجود الحق: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(الشورى:٥٢-٥٣). وبما أن شبكته موئلها -في نهاية المطاف- واحد، فهي تصل في الختم إلى الحق الواحد ﴿أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾(الشورى:٥٣)، وهنالك يجد المؤمن لذة التعرف إلى الله جل وعلا.

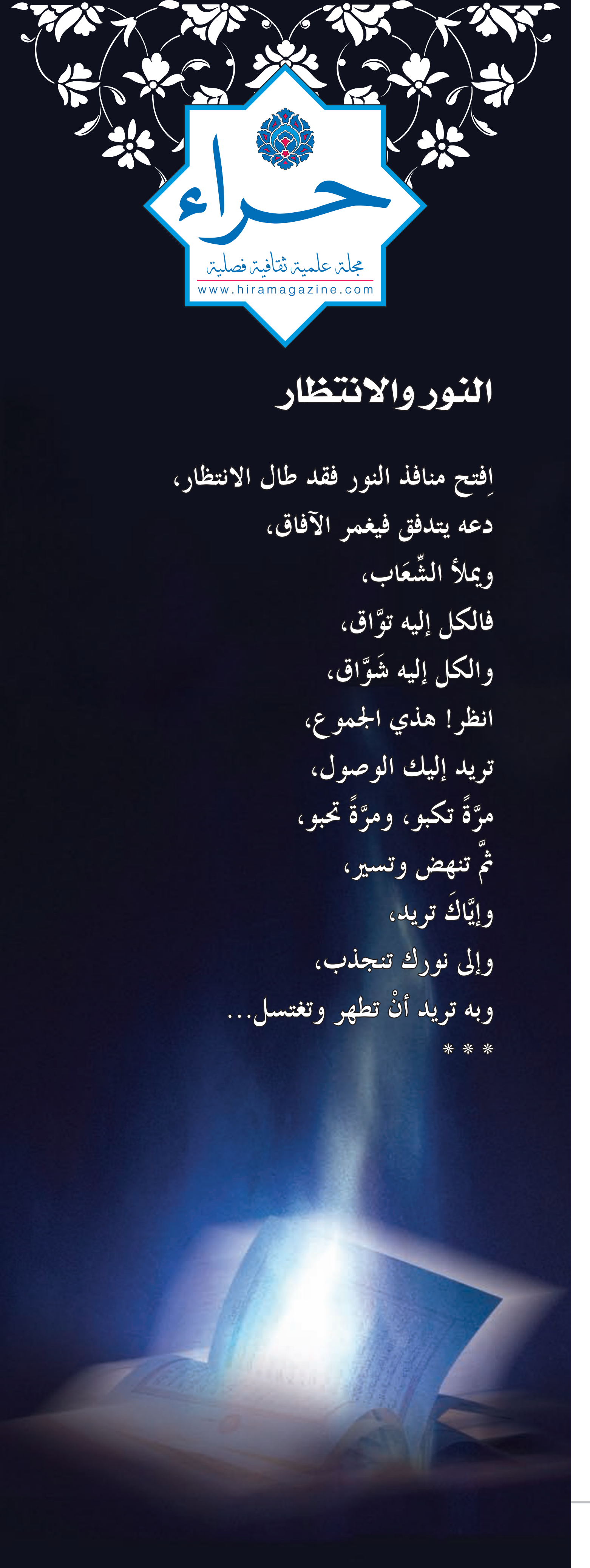
بناء على ما تقرر من أن غاية الخلق الإلهي للإنسان إنما هي التعرف إلى الله جل علاه، فقد جعل له ﷻ وسيلة من أعظم الوسائل التعبدية، ألا وهي التعارف. فالإنسان بما هو مفطور خلقة على سنة الاجتماع البشري -إذ خلق من ذكر وأنثى وجعل شعوبا وقبائل- فقد خلقت أرواح الناس لتلك الغاية على ائتلاف واختلاف بقصد إنتاج التكامل المعرفي في طريق السير إلى الله تعالى. وهذا من أعجب السنن الإلهية في الخلق البشري وألطفها، وهو مفهوم من آية قرآنية وحديث نبوي شريف. فأما الآية فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣). وأما الحديث فهو قوله عليه الصلاة والسلام: "الأرواح جنود مُجنَّدة، فما تعارف منها ائْتلف، وما تناكر منها اختلف" (متفق عليه).

إن التعارف العمراني ضروري للإنسان، ليس فقط لأنه لا يمكن أن يعيش بصورة انفرادية اعتزالية، فهذا أمر بديهي، ولكن ليكون ذلك مقدمة لإنتاج حوار في المجال الروحي، والتداول المعرفي بحقيقة المعرفة بالله في طريق السير إلى الله.

إن العلاقات الأفقية على المستوى البشري العمراني في شبكة الاتصال المعرفية إذا أتيحت لها ظروف الحوار الهادئ الصادق، والتعارف البناء الواثق، تفضي في النهاية إلى علاقات عمودية متوازنة ترتفع بالإنسان إلى السماء في طريق معرفة الله، بل في طريق التكامل في تلك المعرفة.

إن هذا القرآن محفوظ بحفظ الله محروس بقدرته جل علاه، كما نص عليه القرآن بآيه المحكم وكما رسخته حقائق التاريخ الطويل. ومن هنا فإن كل من تعلق بمحفوظ فهو محفوظ بالضرورة. ■

(*) جامعة مولاي إسمعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكناس" / المغرب.



تطوير الذات أم حل ألغاز الشخصية؟

د.سليم أيدين*



أصبح تعبير "تطوير الذات" تقليعة السنوات الأخيرة، فهل كان الناس منذ آلاف السنين من تاريخنا يعيشون حياة غير متطورة؟ وبتعبير آخر هل نظرة السنوات العشر الأخيرة أصبحت تتحدى ما تم تراكمه خلال آلاف الأعوام؟

لا يمكن الجواب طبعًا على هذا السؤال بـ"نعم". بل على العكس من هذا، فإن الناس في العهود السابقة أسسوا توازنًا -بمقياس كبير أو صغير- بين عالمهم الداخلي والخارجي طوال حياتهم. أما العالم الغربي اليوم، فهو على الرغم من نجاحه نجاحًا باهرًا في السيطرة على العالم الخارجي، إلا أنه يعيش مشاكل كبيرة في صدد العالم الداخلي للإنسان. فالتوازن "الداخلي-الخارجي" قد اختل تمامًا ضد الإنسان. لذا يبدو "التطوير الذاتي" نوعًا من قيام الثقافة والفلسفة الغربية بالبحث عن حل.

لقد تأسست مدنيات وحضارات عديدة طوال التاريخ الإنساني، وكانت لكل حضارة من هذه الحضارات عهود أزمات وعهود صعود من زاوية تحقيق الذات الإنسانية.

وفي السبعينات أصبح تطوير الذات إحدى القنوات التي حاولت الحضارة الغربية استخدامها لحل مشاكلها والوصول إلى تأمين سعادة الفرد وإزالة سلبيات الفلسفة السائدة في الغرب، وكتب الشيء الكثير في هذا الصدد وألقيت محاضرات عديدة. وأما في بلادنا فقد بدأ الاهتمام بهذا الموضوع في تسعينات القرن الماضي، وفي عام ٢٠٠٠ م وما بعده انتشر ودخل كل ميادين الحياة.

جوانبه السلبية

وكما في الأمور الأخرى يحتوي قطاع "تطوير الذات" على تناقضات وازدواجيات. فهو في الحقيقة وسيلة لبحث الإنسان عن جوهر ذاته وعما يفتقده، غير أنه يُستغَل من قِبل الفئة التي تملك القوة والرأسمال والقدرة الاقتصادية؛ فهؤلاء يوجهون هذا البحث نحو قنوات مفيدة لهم ولمصالحهم الشخصية، إذ لتطوير الذات جوانب مؤثرة في ساحة عمل العمال والإنتاج وفي العلاقات الاجتماعية كذلك.

إن المعلومات التي تُنتَج في هذا المجال مختلفة جدا وذات أهداف شتى. هناك العديد من العقائد والثقافات والمدارس

الفلسفية التي تحاول نشـــر أفكارها تحت يافطة "تطوير الذات". ولمـــا كانت الطبيعة لا تتحمل الفراغ، فإن الذين يقعون في فراغ معنوي وروحي نتيجةَ بُعدهم عن التربية المتوازنة والثقافة الدينية وعن الثقافة الفلســـفية المنضبطة والفنون الجميلة لا بد أن يبحثوا عمّا يملأ هذا الفراغ. واليوم يحاول قطاع تطوير الذات ملء هذا الفراغ.

وكما يتم اســـتعمال قطاع تطوير الذات كبديل للدين عند الذين نشـــأوا بعيدين عنه، كذلك يمكن اســـتعماله لعرقلة توجه الناس إلى الدين للحصول على الزاد الروحي الضروري للإنسان وتمييـــع معلوماتهم الدينية. وهناك جماعات تنظم المناهج والبرامج التربوية القائمة على خلط عقائدِ وأديان بلدان الشـــرق الأقصى ببعض العقائد والفلســـفات القديمة وتقديمها تحت عنوان "تطوير الـــذات" من أجل إفســـاد الأديان الســـماوية وتلويث صفائها ولاسيما الدين الإسلامي.

والجانب الســـلبي الآخر الملاحظ في تطوير الذات هو قيامه بتضخيم أنانية الأفراد وتوجيههم لمزيد من الإنتاج والاســـتهلاك ولمزيد من اللهو، وذلك انطلاقًا من الزعم القائل بأنه "لكي تنتج كثيرًا عليك أن تســـتهلك كثيرًا، ولكي تستهلك كثيرًا عليك أن تلهو كثيرًا". وهكذا يرومون تشجيع المجتمع الاستهلاكي.

جوانبه الإيجابية

من القنوات الإيجابية الموجودة في قطاع تطوير الذات الدعوة إلى المحافظة على حقوق الإنسان وكيف أنه ليس سلعة للاستهلاك. كما يمكن لهـــذا القطاع أن يكون داعيًا للتأكيد على أهمية الفرد وعلى مسؤوليته ومســـاعدته على توسيع قابلياته. كما لا يمكن إنكار أنه يمكن استخدامه في حل المشاكل العائلية ومشاكل الطلبة واستغلالُه إيجابيا في ســـاحات وميادين عديدة. لذا بدلاً من رد جميع أوجه تطوير الذات دفعة واحدة نســـتطيع أن نختارالنواحي الإيجابية ونفرزها عن غيرهـــا ونصفّيها ونغَربلها وننتقي منها ما يلائـــم ثقافتنا وهويتنا وعقائدنا. لذا نؤكـــد هنا على أن من لم يحصل على إرشاد ومساعدة من المختصّين في هذا القطاع –الذي يختلط فيه النافع بالضار– لا يســـتطيع الاســـتفادة منه الاستفادة الصحيحة والمفيدة.

الإنسان الكامل

كمـــا ذكرنا تمتد جذور تطور الذات إلى المشـــاكل الإنســـانية والمشـــاكل الاجتماعية التي ظهرت في الغـــرب في عهد الثورة الصناعيـــة، ثم إلى عصر المعلومات والحداثة وما بعد الحداثة وإلى الجهود المبذولة في الوصول إلى حل هذه المشاكل. وهو قطاع عُدّ في المجتمعـــات التي بعدت عن هويتها وثقافتها وعقائدها وكأنه يقدم الحلول لكل المشاكل. والأنموذج الذي يستهدفه ويتناوله هو التعريف الغربي الناقص لأنموذج الإنسان. وهو تعريف لا يتطابق ولا يتلاءم مع مفهوم الإنســـان في عقيدتنا وحضارتنا وثقافتنا. ومفهوم الإنسان عندنا يستند إلى مفهوم عميق للوجود وللعلاقة بين الإنســـان والكون المماثلة للعلاقة بين البذرة والثمرة. ويصل هـــذا المفهوم إلى الذروة بأنموذجه في "الإنســـان الكامل"، وهو أنموذج كوني لا يحتاج إلى أي نماذج إنســـانية أخرى. ونستطيع القول بأن العديد من المواضيع التي يتطرق إليها تطوير الذات تجد عمقها الحقيقي في عالم ثقافتنا وعقيدتنا.

رؤيتان مختلفتان

يمكن أن تتوافق رســـالة الأديان مع النظريـــات والنوايا المتداولة في قطاع تطوير الذات أو تتناقض معها حســـب زاوية نظر هذه النظريات ونياتها. ولكن إذا تناولنا هذه المسألة بنظرة شاملة ومن حيث قواعدها وأسســـها، رأينا أن نظرة الأديان الســـماوية إلى الإنســـان تختلف عن نظرة قطاع تطوير الذات إليه، فلكل نظرةٍ أنموذجُها الإنساني المختلف. فمثلا بينما يتم النفخ في أنانية الفرد ويوجَّـــه كل اهتمام لها ولتضخيمها في قطاع تطوير الذات، نجد أن الأديان الســـماوية تَعد "النفس الأمارة" أكبر عدوّ للإنسان، لأن للنفس ماهية تحتاج إلى التربية والتزكية. فبدلاً من تضخيمها يجـــب تربيتها وتوجيهها لطاعة الله تعـــالى وتنفيذِ أوامره. فالمهم هنا هو أنه كيف يتم استخدام الأفكار التي تجول في هذا القطاع وما النية الموجودة وراءها، ولأي غاية تستخدم؟ فهل نستخدمها لتقوية أنانية النفس أم لمعرفة النفس وتربيتها وجعلها مرآة صافية تتجلي فيها أسماء الله الحسنى؟

إن تطوير الذات يربي الفرد على اتباع شهوات نفسه ويجعله أسيرًا لها دون أن يدري، بينما توضح الأديان السماوية للإنسان كيف يستطيع لجم شـــهواته وكيف يسيطر عليها وكيف يزينها بالفضائل، وتريه الطرق الموصلة إلى الإنســـان الفاضل. فالنظرة الأساسية لقطاع تطوير الذات للإنسان تختلف عن نظرة الأديان الســـماوية، ولكن إن كانت نظرتنا لها نظرة تجزيئية فسنشـــاهد كثيرًا من الأجزاء المتشابهة بينهما.

الفراغ الروحي ورواج الفكرة

هناك عوامل عديدة في زيادة الاهتمام بـ"تطوير الذات".

• إننا لا نعرف العديد من القواعد المهمة في ثقافتنا وفي عالم عرفاننا وحضارتنا، ولم نحصل على أغذية كافية منها ولم ندرك أعماقها.

• نظرًا لأن الآثار المهمة لعالمنا وحضارتنا لم تقدَّم لنا في صورة عصرية، فهي لا تبدو جذابة ولا تصل إلى قطاعات واسعة من الجماهير.

• هناك شعور بمركب النقص تجاه قيَمنا، وعدمُ ثقة بها. وقد لعبت الأفكار المسبقة التي تقول بأن كل ما جاء من الغرب فهو صالح وجيّد دَورًا مهمًّا في هذا الصدد.

• يبدو تطوير الذات بديلاً لملء الفراغ الموجود عند الذين لم يتلقوا تربية دينية صحيحة، لذا فهو يرى تأييدًا وتشجيعًا من قبل بعض البؤر والأوساط المعلومة.

• يقوم تطوير الذات بإيهام الناس بجنّة دنيوية خادعة وزائلة دون الإشارة إلى القيم الاجتماعية التي يؤكد عليها الدين وإلى دورها في هذا الميدان وإلى الروابط الروحية للإنسان.

• أخذ قطاع تطوير الذات على عاتقه مهمة إكساب الفرد القـدرةَ والقوة دون أن يهتم بأي حدود أخلاقية، وذلك بنقل الثقافات والعقائد والقيم المعنوية والحاجات النفسية والثقافية للإنسان إلى السُوق الاقتصادية كسلعة من السلع. وأخطر ما في هذا الأمر أنه يحوّل الحاجات المعنوية والروحية للإنسان إلى سلعة من سلع الاستهلاك.

• إن العديد من الأغنياء الذين لم يسعدوا في ظل طراز الحياة المادية المفرطة في الغرب بدأوا يبحثون عن الراحة النفسية في أديان الشرق الأقصى. وفي ظل شعار "كلُّ شيء قابل للشراء"، تُعطى في قطاع تطوير الذات طرقُ الاتصال والبيع والشراء للوصول إلى النتائج دون الاهتمام بأي نية حسنة، بحيث ينقلب الأمر إلى مجرد فن لخداع الناس والدفاع عن النفس. لذا نرى أن طرق الحصول على القوة والقدرة عن طريق الشهرة والشهوة قد تحولت في هذا القطاع بطرق التعليم المعطاة إلى حرفة.

وأخيرًا فإن توجيهات ومحتوى تعاليم تطوير الذات المقدمة إلى الناس بطرق محبّبة إلى الإنسان وبطرق اللهو تؤدي إلى زيادة الطلب في السوق.

التوترات النفسية

في هذه الأيام هناك زيادة متسارعة في الاضطرابات النفسية. وحسب تقارير منظمة الصحة العالمية يُنتظر أن تصل نسبة الذين يعانون من الاضطرابات النفسية إلى ٢٠٪ خلال السنوات العشر القادمة. وسيزداد التوتر النفسي والقلق والخوف والأمراض العصبية والنفسية الأخرى. ففي المجتمعات التي لا تكون مهيأة للتغيرات والتحولات السريعة تزداد أمراض ازدواج الشخصية وتحطم الشخصية وجنون الاضطهاد وجنون العظمة والأمراض العصابية والميل إلى العدوانية. لذا فإن التدابير المتّخذَة لصيانة الصحة النفسية والعقلية ستزداد أهمية في السنوات القادمة. والمشاكلُ الموجودة حاليا هي زيادة الأمراض النفسية مثل الأنانية والنرجسية (عبادة الذات) والماسوشتية (أي التلذذ بالتعذيب الواقع عليه) والجري وراء الملذات والميل لاستعمال العنف.

وتقوم بعض قنوات قطاع تطوير الذات بتشجيع الأنانية والنرجسية وعبادة الشهرة والصيت والنفخ فيها، وزيادة نماذج الرياء والنفاق في المجتمع. وكما قال العالم النفسي البروفسور "راسم أداصال": "لقد أدّى خلق النجوم في الفن والسينما وكرة القدم والموسيقى إلى خلخلة التوازن النفسي للإنسان ونسف توازن علاقاته الداخلية والخارجية. فإن لم تتم السيطرة على أهواء الإنسان ونزواته وحبه الشديد للشهرة وللنجاح في مهنته، فإن تعاليم تطوير الذات التي تشجع هذه الميول ستؤدي إلى صعوبة المحافظة على صحته العقلية والروحية". وفي هذه الأيام التي اشتدت فيها سرعة التحول والتغير في الثقافة والقيم والعقائد وزادت فيها غربة الفرد عن قيمه ومُثُله وثقافته الأصلية سيظهر بالتأكيد العديد من الخلل النفسي في المجتمع.

الفروق الفردية

كل إنسان يأتي إلى هذا العالم بقابليات مختلفة، فإن لم يعرف الإنسان نفسه تمامًا وبدأ بتجارب عشوائية حولها جَرَّها إلى الفراغ وإلى الهاوية، لأن الوصفة الطبية الواحدة لا تؤدي إلى نفس النتيجة عند الجميع. لذا فإنّ كتُب تطوير الذات وتعليماته والمحاضرات التي تلقى حوله لا تصلح للجميع ولا تكون ذات فائدة للكل. لأن الفائدة لا تحصل إلا عندما يتم أخذ الفروق الشخصية واختلاف الأمزجة والقابليات عند الناس بنظر الاعتبار. فيجب تقديم

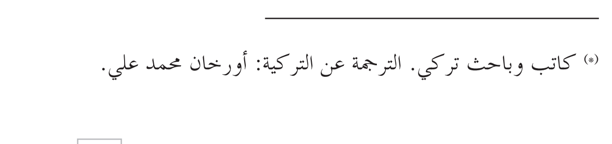
خدمات شـــخصية خاصة لكل فرد. فمن الخطأ القولُ لشخص: "خذ هذا الكتاب واقرأه فهو حل لجميع المشـــاكل". وهو شيء غير صحي وغير مشبع. كما أنه لا يمكن لإنسان أن يطور نفسه بمجـــرد قراءة كتاب أو كتابين أو أخْذ توجيه لبضع ســـاعات. فمعرفة الإنســـان لنفســـه ولقابلياته وبذلُ الجهد لتطوير نفسه وتعميق إنسانيته يستغرق سنوات عديدة. والكتب الموجودة حاليا في الأسواق كتب تحتوي على توصيات عامـــة وتقدم نماذج غربية، والمعلومات التي تقدمها معلومات سطحية. وأمر آخر مهم وهو وجود صفات عامة مشتركة عند الأشخاص الذين يـــبرزون في هذا القطاع، فهم عادة أشخاص نشطون مغرمون بالشهرة ومهيأون لتقبل أنواع الإيحاءات والتلقينات ومهتمون بالمظاهر.

الفكر المستورد ومدى نجاحه

يجب معرفة الآليات التي تلعب دوراً مهماً في وجود الإنسان وبقائـــه معرفـــة صحيحـــة. فللإنسان ناحية فردية وأخرى اجتماعية. وهو يأتي إلى الوجود بميراث جيني وميراث ثقافي ويتشـــكل حسبهما ويكتسب هوية معينة. والآليات الرئيسية للثقافة هي الدين واللغة والتقاليد. هذه العوامل الثلاثة هي التي تشكل هوية الإنسان ولاشعورَه وماهيته سواء أ شعر بها أم لم يشعر. وتشكيل هوية الإنسان له نواح محلية وعالمية. فإن استطاع الإنسان تشكيل هويته بالعوامل والتأثيرات المحلية والعالمية كان عملـــه هذا إيجابيا وهويته متوازنة. فالأفراد -وكذلك المجتمعات- يحملـــون مميزات خاصة بهم. ولا يمكن استنســـاخ ثقافة مجتمع آخر وتفصيل ملابس ملائمة منها. فإن شوهد وجود أجزاء منها مناسبة جاز استعمالها بعد ملاءمتها مع التقاليد المحلية؛ وإلا حدث هنا ما يحدث عند نقل عضو إلى جسم آخر من رفض للجسم للعضو الغريب عنه. فإن نقلت ثقافة غربية أدى هذا إلى تشكيل هوية غير صحية. واليوم نشاهد مثل هذا الأمر في مجتمعاتنا من أزمة الهوية نتيجة هذا النقل والتقليد العشـــوائي.

هويتنا وحلّ مشاكلنا

نستطيع القول بأن هويتنا تكفي من الناحية النظرية وتزيد. ولكن يجب هنـــا الانتباهُ إلى مقدارِ غنى وعمـــقِ ميراثنا الثقافي وتقديمُه بأسـلوب عصـــري. فنحن نعيش عهد استهلاك وتعودنا على تغليب الاستهلاك على الإنتاج، واللهو على القراءة، والنقل والحفـــظ على إنتاج فكر جديد. فإن اســـتطعنا التخلـــص من هـــذه العادة الضـــارة اســـتطعنا النجاة. إذ يكفينـــا المـــيراث الثقافي الذي وصـــل إلينا من مئات الشـــخصيات الفكريـــة من أمثال الإمـــام الغزالي، وعبد القـــادر الكيـــلاني، والإمام الرباني، وابن ســـينا، وبديع الزمان سعيد النورسي. فمثلا كتاب "المثنوي" لجلال الدين الرومـــي و"رســـائل النور" لسعيد النورسي في موضوع تطوير الذات إن تم تفسيرهما تفسيرًا صحيحًا، فهما خزينة ثمينة في هذا المجال. فإن استطعنا نقل قيم ثقافتنا وعقيدتنا إلى أطفالنا وشبابنا بلغةٍ ونكهةِ العصر فنحن على يقـــين بأن الطلب على قطاع تطوير الذات -الذي ولد بســـبب فراغ في مجتمعنا- سيقل. وما سيجدّ من الطلب سيغطَّى وسيؤمن من منابعنا ومصادرنا الأصلية ومن عالَم قيمنا الذاتية، وســـيظهر آنـــذاك "تطوير الذات الخاصُ بنا". وقـــد لا يكون اسمه "تطوير الذات" بل "الطريق إلى فهم أسرار النفس".■



(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

شوقا إلى الله[١]

أ.د. حسن الأمراني*

شوقا إلى الله طيري واهتكي الحجبا ... النور يدنو وطيب الجنة اقتربا

شوقا إلى الله طيري مقلة عبرت ... تسابق الريح والأفلاك والشهبا

شوقا إلى الله وثبا غير وانية ... فليس من سار وهنا كالذي وثبا

شوقا إلى الله، لا خوفٌ ولا حَزَنٌ ... هل يعرف الحزن مَنْ مِنْ ورده شربا؟

شوقا إلى الله يا أبهى محجَّبة ... من سيبك العذب ماء الشعر قد عذبا

يا رند فاس، ويا بلقيس أندلس ... يا نسمة الأطلس الجبّار عن وهبا

لم نبن للعشق غيما نستظلُّ به ... إلا تدفَّق من أجفاننا قِربا

فأرسلي الدّمع من جفن أضرَّ به ... ذنب تعاظم حتى قرَّح الهدبا

وقد تصاغر في عفو الإله إلى ... أن صار بعد بكاء الرّوح محض هبا

خضنا وخاضت مطايانا الهوى فهوت ... صواعق الموت تبغينا الهوى حربا

خضنا إلى أن تلقتنا لطائفه ... فاستفرغ القلب دمعا عز فاحتجبا

للشّوق أجنحةٌ خضراء سابحة ... تلامس الغيب، ليست تحذر الرقبا

فاستحلبي من سماء الغيب درهّا: ... السّعد والرّشد والإيمان والأدبا

تبارك الله، إنَّ الله أنزلنا ... دارا مكرّمة لا تعرف النّصبا

السعد ينشر في أفيائها خيما ... والرّشد يضرب في أرجائها طنبا

والحسن يجعل من جفنيكِ متكَأ ... كوني إذا ما همى أمًّا له وأبا

صرنا سويا إلى دار الهدى فهمى ... نور الهدى في حواشي القلب نبع ربى

وهبت الرّيح تبغي نسف خيمتنا ... فكنت أصلب مني عزمة وإبا



يا همة تبتني في النجم منزلة ... عزّت، وتقطع مما تحمل القضبا
سوّاك ربّك من أنوار حكمته ... ومن يسوّي بقلب الدرّة الخشبا؟
تبيت راكعة لله خاشعة ... الأرضُ تأكل منها الكفّ والرّكبا
كم زفرة في ضمير الليل ترسلها ... والدّمع في النحر بالآلام قد ذهبا
كم كحلت من نشيج القلب مقلتها ... لا كحل، لا قرط تبغيه، ولا قلبا
شوقا إلى الله يا أبهى مجاهدة ... إن الشّهادة دربٌ يُبلغ الأربا
أضحت سمية في عليائها ابتسمت ... لما رأتك شهابا يرجم النصبا
وتلك خولة قد ضمّت جوانحها ... من عزمك الفذ ما تحيي به الحقبا
ما غابت الشّمس، والأنهار ما فتئت ... ريًّا، ولم يبرح الإيمان منسكبا
ولم تزل هذه الصّحراء حاملة ... سرّ الحياة، ونبع النّور ما نضبا
تمدّ للمرتضى كفا مبايعة ... وللحسين إذا حمّ القضا نسبا
ومن ندى السّبط تروي حرًّ وقدها ... طوعا، وزينب للخُلد انتضت سببا
من أبصر الحُرّة الحسناء عزمتَها ... ترد عند اللقاء الجحفل اللجبا
ما تلك؟ برعم حبٍّ في تفتُّحه؟ ... أم إنها قدر يسعى؟ فوا عجبا!
شوقا إلى الله طيري، غير عابئة ... بمن غدا يزرع الأقطار حقل ظبى
وزلزلي تحت أقدام الطّغاة ثرى ... كم ضجّ من بطشة الباغي وكم ندبا
لا تسألي عن فتى الفتيان في حلب ... فلست تلقين لا سيفا ولا حلبا
لا تطلبي من دمى صارت محنَّطة ... للنّصر سيفا ولا رمحا ولا نشبا
شوقا إلى الله طيري، أنت مرشدتي ... وفي يديك لمست النّصر والغلبا

(*)رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.

بوصلة لا تخطئ

تعيين الاتجاه لدى الحيوانات

شَفق أوزتُرك*



بينما يجد الإنسان صعوبة في الوصول إلى الأماكن التي يقصدهــا على الرغم من وجود الطرق الجيدة واللوحـــات على هذه الطرق ووجود الأجهزة التي تساعد على الملاحة، تستطيع الطيور أن تصل إلى أهدافها البعيدة عنها بعشرات الآلاف من الكيلومترات دون أي خطأ أو انحراف، وهذا الأمر خارق يُدهش الإنســان. إن الأجهزة التي تعين محاور أي مكان مثــل جهــاز (GPS: Global Positioning System) لم تظهــر إلا نتيجة تراكم التجارب عند الإنســان طوال آلاف السنين. ولكن بعض الحيوانات وُهبت منذ خلْقها نظماً حساسة مثل نظام (GPS). وبينما تتوازن الحواس الموهوبة للإنســان فيما بينها، نرى أن هناك حواســاً معينــة للحيوانات تكون في المقام الأول عندها، وتســبق حواسها الأخرى، وذلك حسب أوضاع التغذية والصيد عندها. فمثلاً نرى أن حاســة السمع عند البوم، وحاسة البصر عند النسر، وحاسة الشم عند كلب البحر تكون أقوى مما هي عند الحيوانات الأخــرى. وهناك حيوانات تقوى عندها قابلية تعيين الاتجاهات والمسارات.

الطيور وتعيين الاتجاه

لكي تســتطيع الطيور تعيين اتجاه طرق الوصول إلى أهدافها فقد وُهب لها نظــام (GPS) أي نظام دقيق لتعيين طرق الوصول إلى أهدافها. ففي بحث أجري على طائر الحناء (Erithacus Rebecula) تبين أن عنده صفة لم نكن نعرف عنها شــيئاً حتى الآن، حيث إن العين اليمنى لهذا الطائر مزودة بشــيء يشــبه البوصلة تعمل حســب المجال المغناطيسي للأرض، تُعيّن له اتجاه طيرانه. فهناك مركب بروتيني معقد (Cryptochrome) في العين اليمنى له يدخل في تفاعل كيميائي بشــكل متوازٍ مع خطوط المجال المغناطيسي لــلأرض. ثم يتحول هذا التفاعل الكيميائي الحاصل في العين إلى تفاعل ضوئي، وبنتيجة هذا التفاعل يســتطيع الطائر مشــاهدة المجال المغناطيسي للأرض ويستفيد منه.

وقد أثبت البروفسور "بيتر بيرتولد" المتخصص في علم الطيـــور بالتجارب الناجحة التي أجراها على الطيور بأن الجينات هي التي تعين كون أيّ طير من الطيور مهاجرة أو غير مهاجرة. وكذلك هي التي تعين مسار هذه الهجرة وزمانها. وطائر أبو قلنسوة (Sylvia Atricapilla) يدخل في صنف الطيور نصف المهاجرة. فقسم منه يهاجر نحو الغرب (إلى شمالي إفريقيا) وقسم منه إلى الشرق (إلى قبرص وفلســطين). وفراخ هذه الطيور المهاجرة إلى اتجاهات مختلفة على الرغم من كونها تعود إلى النوع نفسه إلا أنها -لكونها هجينة- لا تهاجر مثل أبويها إلى الغرب أو إلى الشرق، بل إلى الجنوب؛ لأن البروتين المركب (Cryptochrome) الذي يقوم بوظيفة تعيين المســار في الهجرة في هذا الطائر يكون له تركيب وتنضيد آخر جديــد، وله خواص مختلفة. وهذه النتيجة التي تَوصَّل إليها العلم تُبين أن الفطرة التي فطر الله هذه الطيور عليها تكون متلائمة مع الظروف الطبيعية المحيطة بها.

ونظـــراً لاختلاف تركيب هذا البروتين من الناحية الجينية في هذا الطائر وكونه مختلفاً عن أبويـــه فيمكن إهمال تأثير الفروق البيئيـــة هنـــا، لأن التغيير هنا موجود في الجينـــات. لذا نرى أن علماء الطيور من أنصـــار نظرية التطور يجدون صعوبة كبيرة في إيضاح هذه المســألة. وبعبارة أوضح فمن المستحيل قيام الطيور عن قصد وعن تخطيط بتغيير جيناتها حسب مصلحتها وفائدتها. فهـــذا أمر واضح لا جدال فيه. والعلماء من أنصار نظرية التطور عندمـــا يفترضون أن الصفات الجينيـــة تَنتج من عمليات تنضيد عشـــوائي للجينات، إنما يســـندون عمليات مستحيلة للطفرات الوراثيـــة. وهم يقعون في تناقض صارخ عندما يزعمون أن جميع خواص وقابليات الطيور المهاجرة تظهر نتيجة طفرات عشوائية، ثم يســـندون العقل والتدبير لهذه الطفرات التي تختار أفضل سبل الهجرة وإمكانها للطيور، ويتناســـون عن عمدٍ الحكمةَ والقصد الإلهي القادر على كل شيء.

سلاحف البحر

لقد وُهبت سلاحف البحر قابلية متطورة جداً في تعيين اتجاهها؛ فهذه الأحياء التي تقضي أكثر من عشرين سنة في المحيطات لا تجد أي صعوبة في الاهتداء إلى الساحل الذي ولدت فيه. فالتجربة التي عاشها صياد سمك من فلوريدا أظهرت بشكل واضح مدى روعة هذه القابلية عند ســـلاحف البحر. ففي عام ١٩٥٠ أبحر صياد سمك من فلوريدا إلى مياه "نيكاراغوا" لصيد ســـلاحف البحر. وحسب القوانين المرعية حفر على ظهور السلاحف التي اصطادها ختمه وتوقيعه. وبينما هو في طريق الرجوع مع الســـلاحف التي اصطادهـــا هبت عاصفة قوية عند اقترابـــه من فلوريدا. ومع أنه نجح في الحفاظ على قاربه من الانقلاب، إلا أن الســـلاحف التي اصطادها وقعت في البحر. وبعد شهر من هذه الحادثة ذهب مرة أخرى لصيد السلاحف البحرية في مياه نيكاراغوا. وكم كانت دهشته عندما رأى توقيعه على ظهر إحدى السلاحف. إذ كيف تمكنت هذه السلاحف في ظرف شهر واحد من قطع مسافة تزيد عن ألف كيلومتر دون أن تضل طريقها؟

ثعابين البحر

كانت هناك مشـــكلة شـــغلت أذهان علماء الأحياء المائية عدة ســـنوات، لأن البحوث العديدة الـــتي أجروها أظهرت لهم عدم وجود صغار ثعابين البحر. لأن هذه الصغار تملك شـــكلا وبنية تختلف عن الثعابين البالغة، أي تختلف عنها مورفولوجياً. لذا فقد

أطلق على هذه الصغار اسم آخر هو (Leptocephalus). أما الآن فالعلماء أدركوا بأن هذه الثعابين لا تضع بيوضها إلا في بحر "ساركاسو" الذي يقع على بعد ٦٠٠٠ كم عن سواحل أوروبا. والصغار التي تخرج من هذه البيوض ما إن تصل إلى قدرة وقوة معينة حتى تترك هذا البحر وتبدأ رحلة تمتد من المحيطات إلى الأنهار الجارية. ويرجح العلماء أن هذه الثعابين تستعمل المجال المغناطيسي للأرض في تعيين مسار هجرتها مثلها في هذا مثل الطيور المهاجرة. وهي تقضي ٦–٢٠ سنة من عمرها في المياه الجارية، ولكنها تترك هذه المياه بسوق من الإلهام الإلهي متوجهة إلى موطن مولدها لكي تتكاثر هناك. وهذه الرحلة تستغرق ثلاث سنوات. وبعد أن تصل إلى بحر "ساركاسو" تقوم بأهم وظيفة لها وهي التكاثر، وبعدها تنتظر الموت، فلا تخرج أبداً عن الإرادة الإلهية الملهمة لها.

الخُلد، أخصائي في علم الزلازل

نظراً لأن الخلد يتغذى بجذور النباتات فهو يعيش ويتحرك تحت الأرض بعمق ٢٠–٤٠ سم. وتتطلب الحركة تحت الأرض طاقة كبيرة. لذا كان على الخلد الوصول إلى الجذور عن أقرب طريق، واجتيازُ العوائق المحتملة، وذلك بصنع زلزال صغير. أي إنه يتصرف تحت الأرض كأخصائي في علم الزلازل. ويقوم الخلد بهذا بضرب رأسه سقف الأنفاق التي يصنعها تحت الأرض لإحداث هزة أو رجة أي زلزال صغير، ويستمع إلى صدى الزلزال في محيطه ويقيمه ويتوصل بذلك إلى أقصر طريق في شق النفق وأقله صرفاً للطاقة. لذا فهل يمكن أن يتم تفسير هذا الأمر الذي يحتاج إلى حسابات دقيقة من مخلوق محروم من العقل والشعور كالخلد وإسناد الفضل إليه أو هل يمكن تفسيره بالطبيعة ومصادفاتها؟

الحيتان والموجاة الصوتية

منذ سنوات عديدة والعلماء يعلمون أن الحيتان تستطيع أن تتخاطب فيما بينها على مسافات تبلغ آلاف الكيلومترات، وذلك بالأصوات المختلفة التي تطلقها. وقد سجل علماء الأحياء هذه الأصوات وصنفوها، فتوصلوا إلى معرفة أن هذه الحيتان تجد بهذه الأصوات طريقها في المحيطات، لأن الأمواج الصوتية التي تبعثها عندما تصطدم بجسم وترتد إليها تعرف –بالفطرة الإلهية المركوزة فيها– طبيعة هذا الجسم وبُعده بل حتى سرعته. فالموجات الصوتية الراجعة إليها بشكل متوالٍ تكوّن في دماغها ما يشبه صورة ذلك الجسم. ومع أن الإنسان أيضاً يستطيع التمييز بين صوت القطار والسيارة، إلا أنه لا يستطيع معرفة سرعة القطار أو سرعة السيارة ولا بعدها عنه بشكل واضح. ويقوم حوت العنبر بعد تعيين موقع فريسته بزيادةِ وتكثيفِ إطلاق الأصوات ثم يقبض عليها ويلتهمها.

نملة الصحراء عالمة رياضية

كنا حتى الآن نعلم أن النمل تستطيع استقطاب ضوء الشمس (Polorization) وتستدل على طريقها بواسطة هذه القابلية. وقد رُشح البروفيسور الدكتور "رودكر وانر" مدير معهد علم الحيوانات في جامعة زويورخ لجائزة نوبل تثميناً لبحوثه حول آليات النظم العصبية لنمل الصحراء. فقد خطر ببال هذا العالم أن نمل الصحراء تستطيع الرجوع إلى مسكنها بعدِّ وإحصاءِ عدد خطواتها، لأن هذا العدد مع معرفة طول كل خطوة هو الذي يعين مسافتها عن مسكنها. وللتأكد من هذا قام بتطويل أقدام النمل، وذلك بلصق شعرات صلبة في أرجلها عند رجوعها إلى المساكن فرأى أن النمل بعد أن طالت أرجلها –أي زاد طول خطواتها– لم تقف عند مسكنها بل وقفت بعد مسافة تجاوزت المسكن. لأن النمل عندما خرجت كانت خطواتها أقصر. ثم قام بقص الجزء السفلي من أقدام النمل فرأى أن النمل وقفت قبل الوصول إلى مسكنها. هنا كانت خطواتها عند الخروج أطول من خطواتها عند الرجوع. وكانت النتيجة التي تَوصّل إليها بعد هذه التجارب أن النمل تعد عدد خطواتها عند الخروج من مسكنها، ولا تنسى هذا العدد، بل تتذكره عند رجوعها، لذا تستطيع الرجوع إلى المسكن دون أي خطأ. علماً بأن عدد الخطوات كبير يبلغ عشرات الآلاف. والغريب أن النمل التي طالت أرجلها أو قصرت تتعود بعد فترة على هذا فلا تجد صعوبة في الرجوع إلى مسكنها. فكيف تستطيع النمل القيام بهذا العد والإحصاء مع أن حجم دماغها يبلغ ١/١٠ ملغم فقط؟ إذن فمثل هذه المنظومات الخارقة الموجودة في الأحياء تشير إلى أنها لم تظهر نتيجة مصادفات عشوائية وعمياء.■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



مفهوم الواجب في الإسلام

مقتضياته التشريعية وتطلُّباته الحِكَميّة (١)

أ.د. أحمد عبادي*

يحظى اليوم موضوع الواجب باهتمام واسـع في حلبات النقاشات النظمية والحقوقية والاجتماعية والسياسـية وحتى الاقتصاديـة، لكون مبحث الواجب يتموقـع من هذه المجالات جميعـا في المنطلق والمبتدأ والبؤبؤ والسويداء؛ ففي مجال حقوق الإنسان مثلا يجري النقاش على أشدّه حول كيفية زرع مفهوم الواجب ضمن البنية الحقوقية ولاسـيما حقوق الجيل الثالث (الحقـوق التضامنية) كالحق في البيئة السليمة والحق في السـلام والحق في التنمية. وهي حقوق يحضر فيها بجلاء -إلى جانب المكون الحقوقي- مكونُ الواجب ومسـؤولية الفرد. فالبيئة السـليمة لا يمكن ضمان وجودها إن لم يتحمل الأفراد مسـؤولياتهم ويقوموا بواجباتهم تجاهها، وكذا ضمانُ التنمية والاسـترواح بالسـلام؛ فكل ذلك يحتاج إلى أن يقوم الأفراد بواجباتهم إزاءه، مما أدى إلى انبعاث مفهوم الواجب من جديد في النقاشـات الحقوقية بعد أن كان الجيل الأول من الحقوق (المدنية والسياسـية) والجيل الثاني (الحقوق الاقتصادية والاجتماعيـة والثقافية) مرتكزين علـى النموذج المعرفي القائم على الحقوق وليس الواجبات، وذلك بسبب ما نبه إليه الباحث (Ben Saul) في قولـه: "بما أن النضـالات التي قامت بها حركة حقوق الإنسـان ضد استبدادات الكنيسة والنبلاء الفيوداليين في مرحلة أولى، وفي مرحلة ثانية ضد النفاقات الاجتماعية والإقصاء ونقائص النضالات السـالفة، كلها ارتكـزت على مواجهة ما كان يفرضه المتنفـذون من واجبات ظالمة علـى الأفراد، فقد بلورت حركة حقوق الإنسـان حذرا تلقائيا تجاه كل لغة فيها الواجبـات والإلزامات مما يبقى بالنظر إلى ماضي هذه الحركات

حذرا وتشككا مبررين". ومن ثم معاناة المنظرين لتنـــزيل الجيل الثالث من الحقوق (الحقوق التضامنية) والتي ضمن بنيتها ضرورة الارتكاز على الواجبـــات، وهي معاناة لا وجود لها في النماذج المعرفية التي يمنحها الإسلام.

أمـــا في المجالين الاجتماعي والسياســـي فيجـــري اليوم في أكثـــر دول العالم تقدّما نقاش مســـتحرّ حول كيفية إحياء ثقافة الواجب دون إحيـــاء الدولانية والديماغوجية، وكما قال (Don. E. Eberly): "إعادة اختراع المواطنة ليس كنموذج شـــاعري بل كعقد اجتماعي يشـــتمل على العمل الجادّ والتضحيات، ومهما كان ما تفعله الحكومة أو لا تفعله فإن مهمة الإصلاح والتجديد ســـتقع على كاهل المواطنين. إذ ثمة أمـــل ضئيل في التغيير الذي يعتمد على الإستراتيجيات الفوقية أو على النظريات المجرّدة دون إدماج المواطنين في تولّي مسؤوليات إنعاش المؤسسات والاتّسام العملـــي أمامهم بالصفات التي ينبغي أن يقتدى بها". وهذا التوق ما بعد الحداثي هو ما تجسده سنة المصطفى ﷺ الذي كان سباقا للواجبات، فعن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ أَحسن النَّاس وأجود الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قِبَل الصوت فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناسَ إلى الصوت وهو يقول: "لن تُراعوا لـــن تُراعوا" وهو على فرس لأبي طلحة عُرْي ما عليه سرج في عنقه سيف فقال: "لقد وجدته بحرا" (لفرس أبي طلحة) (متفق عليه). وكل ما ســـلف من عوامل يجعل الحديث في موضوع الواجب في هذه الظرفية بالذات يكتســـي أهمية خاصة. فالواجب لحمة وسدى النسيج العلائقي في المجتمعات والمؤسسات. وهو المحور الـــذي يتمحور حوله إنجاز الـــدول والحضارات.

التأسيس القرآني لموضوع الواجب

ويمكن التأسيس للحديث في موضوع الواجب في الإسلام انطلاقا من عدد من آيات الذكر الحكيم يبقى من أبرزها في هذا السياق قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(النحل:٧٦).

أورد الطبري رحمه الله في تفســـيره عن ابن عباس رضي الله عنهما رواية بالغة الدَّلالة على قدرة حَبر الأمة على تبين مراد الله مـــن كلامه. فقد قال ﷺ: "وهذا المثـــل في الأعمال" وهذا لب الآية الكريمة.

فالآية فيها الإشارة إلى مقومات القيام بالواجب من الأعمال كلّها، وهي "القدرة" و"الإرادة" و"الإنجاز".

والقدرة قدرتان فهمية وماديـــة. وإلى انعدام القدرة الفهمية تمت الإشـــارة بقوله تعالى: ﴿أَبْكَـــمُ﴾، قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: "وكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم، يقال بكِم عـــن الكلام إذا ضعف عنه لضعف عقله. فصار كالأبكم". وهو ما ذهب إليه ابن الجوزي في تفســـيره إذ قال: "والبكَم عيب في الفؤاد يمنعه أن يعي شيئا فيُفهِّمه، فيجمع بين الفساد في محل الفهم وفي محل النطق"[1]. قال الأزهري: "وبين الأبكم والأخرس فرق في كلام العرب، فالأخرس الذي خُلق ولا نطق له، والأبكم الذي للسانه نطق وهو لا يعقل الجواب ولا يحسن وجه الكلام".

وأمـــا "القـــدرة المادية"، فإلى انعـــدامها أشار قوله تعالى: ﴿لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَـــى مَوْلاَهُ﴾ فالكلّ هو الثقيل على وليه وقرابته والذي "لا إرادة له"، فانعدم بهذا المقوم الثاني من مقومات القيام بالواجب وهو الإرادة. ونظرا لما للإرادة من أهمية ومركزية في الفلاح فقد اشتهر في العرف الصوفي تسمية السالك: "المريـــد" إذ أول ما يربّى فيه هو ضبط هذه الإرادة وذلك بتزكية منابعها الباطنية وتصفية مقاصدها ومناطاتها الظاهرية وتوجيهها وجهة الخير. والإرادة تتفرع من عاملين هما: العلم والمحبة، فحتى يراد شـــيء لا بدّ أن يعلم، ثم لا بـــد أن يحب البلوغ إليه. وهذا المقوم هو الأســـاس الذي تقوم على توظيفه علوم التســـويق إذ يصاغ العلم بالســـلعة على نحو جاذب وتُنشأ في نفس المستهلك محبة البلوغ إليها.

أما قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ فهو دلالة على انعدام الإنجاز والجدوى في العمل إذا أُجبر هذا الكَلُّ على القيام به بتوجيه مولاه له، وبذلك ينعدم المقوم الثالث الذي هو الإنجاز.

أما الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مســـتقيم فأمره بالعدل دال على فهم عنده يمكّنه من إدراكه. وقد عرّفوا العدل بكونه الحق والصواب الموافق للواقع وأنه ضد الظلم؛ والظلم هو وضع الأمور في غير مواضعها. وعين أمره بالعدل دالّ على قدرته، وأما طيّب إنجازه فيدل عليه قوله تعالى ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. فأمامنا هنا إنسان قادر على تبيّن مواطن العدل وعلى الأمر به بحكمة مواجها في سبيل ذلك ما قد يعترض من عقبات، كما أنه قادر على تبين العلامات التي تمكّن من التعرف على الصراط المستقيم والثبات عليه.

وهذا الأمر بالعدل والثبات على الصراط المستقيم لا يكون بدون إرادة، فهي إذن مقومات القيام بالواجب الثلاث: "القدرة" و"الإرادة" و"الإنجاز"، وأي إنجاز أعظم من الاتصاف بالعدل والأمر به على صراط مستقيم.

والآية الكريمة من آيات وعلامات سورة النحل. وهي سورة ومنذ مطلعها تبين مؤقتية هذا الوجود وتُذكر بيوم الحساب ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾(النحل:١) وتبين للإنسان أن لا حجة ولا عذر بعد البيان الذي جاءت به الرسل ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾(النحل:٢).

وبعد امتنانه تعالى وتذكيره بكل المقومات والمؤهلات التي سخرها للإنسان ينتقل السياق إلى تجلية وبيان معالم أوجب الواجبات وهو توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية المبني على الاستحقاق الأمْكن، بسبب الخلق والهداية والتسخير والإحسان ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(النحل:١٨). في مقابل ما تردّى إليه الضالون من عبادة ما لا يستحق ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(النحل:٢٠).

ليخلص السياق بعد ذلك إلى بيان -وعلى لسان من قاموا بواجب طلب العلم- أن الجزاء من جنس العمل. وَوَفْقَ القيام بالواجب أو عدمه ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ۞ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل:٢٧-٢٨). فلا يجيب أهل الظلم والتفريط والكلالة، للـ"بكم" الذي فيهم، بل يجيب أهل العلم والعدل في مقابل الذين أحسنوا عملا الذين يجيبون عن أنفسهم لأنهم كانوا -وهم بعد في الدنيا- محسنين آمرين بالعدل وهم على صراط مستقيم ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾(النحل:٣٠) إلى أن يقول سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل:٣١-٣٢) ليبين بعد ذلك سفه وبكم منظومة الشرك واختلال معتقدهم ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ۞ وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾(النحل:٥٦-٥٧). وهو موقف سوف يصير في السنوات القليلات التاليات لزمن نزول الآيات عنه مؤشرا على بيان النقلة البعيدة التي قام بها الوحي مع الإنسان وذلك في قوله تعالى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(النحل:٥٨-٥٩). فشتان بين هذا الموقف وبين الريادة العلمية لأم المومنين عائشة رضي الله عنها.

وذلك بعد أن بين سبحانه مركزية الوحي في حياة الكائنات عموما وأن فلاحها رهين باتباع هاداياته إن طوعا أو كرها. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ۞ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل:٤٣-٤٤).

كما بين سبحانه أن استقامة الكون وما فيه من كائنات إنما هي نتاج اتباع الوحي ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۞ وَلِلهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(النحل:٤٨-٥٠)، في مقابل ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾(النحل:٦٢)، رغم هاديات الوحي ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(النحل:٦٤).

بيد أن الكائنات الكونية تنتفع بوحيها وتنتج ما خلقت له عن طريق القيام الطوعي بالواجبات التي يهدي إليها الوحي ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل:٦٨-٦٩).

لتنتهي بنا السورة الكريمة إلى بيان معالم المجتمع السليم مجتمع الواجبات الذي يكون لأفراده إنجازهم المنتج المتنافس المتكامل "المعتبر بمجتمع النحل وأدائه المتناسق" ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل:٦٩). وذاك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ۞ وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل:٩٣-٩٦). وذلك في دقة متناهية ترسم معالم مجتمع الواجب ليُنْصَب، تتويجا لهذه المعاني وتجسيدا لها، مثال أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي تجلت كلها فيه بامتياز وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(النحل:١٢٠-١٢١) والشكر عمل وقيام بالواجب لقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(سبأ:١٣).

لتختم السورة بإيقاع نابض تتجلى من خلاله حركة الإنسان الآمر بالعدل ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(النحل:٧٦) لإقامة صرح مجتمع الواجب في دفق إنجازي لا يوقفه خلاف المخالفين ولا صدّ الصادّين أو مكر الماكرين ولا كل الصعوبات التي تعترضه ولكن لا تعيقه. وذاك قوله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۞ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۞ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ۞ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾(النحل:١٢٥-١٢٨).

مما يجعل سورة النحل سورة تتجلى فيها مقومات الواجب كلها، من بواعث قائمة على الشكر الدافع للإحسان بسبب التسخير والهداية. وكذا وعي مؤقتية اللّبث في هذه الحياة وحتمية مجيء يوم الحساب والعبرة بمصائر المخالفين والعمل بمقتضى كل ذلك في اتزان على صراط مستقيم.

فما هو الواجب في الإسلام وما هي أسسه الاعتقادية والتصورية؟ وما هي مقتضياته الشرعية وتطلباته الحكمية؟

تعريف الواجب

الواجب لغة: من وَجَبَ الشيء يَجِبُ وجوبًا، أي لزم لزوما، وثبت ثبوتا، والموجِبة من الأعمال الكبيرة، الحسنة أو السيئة الموجِبة للثواب أو العقاب.[٢]

وقبل الانتقال للحديث عن الواجب شرعا يحسن المهد لذلك



بالحديث عن المقومات والأسس الاعتقادية والتصورية التي يرتكز عليها هذا المفهوم في الإسلام. فالاعتقادات والتصورات دعامة الواجب وعماده في هذا الدين.

الأسس الاعتقادية والتصورية المؤطرة للواجب في الإسلام

يبرز الإنسان في منظومة الإسلام الاعتقادية والتصورية باعتباره الجسر الكوني المؤهَّل الذي تعبر منه القيم والأخلاق والتشريعات الحاملة لمراد الله التكليفي من الإنسان تجاه نفسه ومحيطه الكوني إلى البعدين الزماني والمكاني لتصبح جزءا من التاريخ والحياة، ويبرز التكليف الملقى على عاتق هذا المخلوق (الأمانة) ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢). باعتباره تكليفا لا يعرف حصرا ولا حدودا، إذ الكون كله في هذه المنظومة مسرح لفعل الإنسان وعتاد له. فالنوع الإنساني كله موضوع فعله الأخلاقي كما الكون كله. وقد تجلى هذا الوعي بعمق في قول عمر رضي الله عنه: "لو أن بغلة عثرت في طفّ العراق لخشيت أن يسألني الله لِمَ لَمْ تعبّد لها الطريق يا عمر". أما زمانيا فإن هذا التكليف لا ينتهي إلا يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها"[٣].

وتبرز مقومات القيام بالواجب في هذه المنظومة الاعتقادية والتصورية على الشكل الآتي:



١- **تزويد الإنسان بالعقل وجعله مناط التكليف:** ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(النحل:٧٨). ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(الأعراف:١٧٩).

٢- **المواءمة بين الإنسان والكون من جهة، وبين الإنسان والوحي من جهة ثانية:** وارتكاز المواءمة في الإنسان يقوم على قدرته على الفهم عن طريق الألباب/النُّهى/الأفئدة/العقل، وهي الوظائف التي تمكن الإنسان من الإدراك والتعقل والتفكيك والاستنباط والتخيل والحدْس والاستشراف ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(البقرة:٣١-٣٣). أما في الكون فترتكز المواءمة على تسخيره ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(الجاثية:١٣). وترتكز في الوحي على تيسيره ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:٤٠)، مما يجعل الإنسان قادرا على استبانة الآيات والعلامات سواء كانت في الكون أو في الوحي. ونظراً لمطواعية الكون واستجابة الوحي فإن الإنسان يصبح قادرا على الفعل في الأول بهاديات الثاني.

٣- **قصدية الخلق:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(الذاريات:٥٦-٥٨). وارتكازا على الأسس السالفة يصبح الإنسان قادرا على إدراك هذه القصدية ويصبح من ثم مسؤولا عن تحقيقها.

٤- **بنائية الشرع والعقيدة ووحدتهما ومفهوميتهما:** وهذا يثمر وضوح الواجبات التي توجهان إليها، فمقاصدُهما، وأوامرهما، ونواهيهما واضحة قابلة للتعقل، ومتكاملة تحرر تماسكا يُمكّن من تحديد الأولويات وتبيُّن مراتب الأعمال.

٥- **المسؤولية والمحاسبة:** إذ برز أن على الإنسان مسؤولية العمل في ذاته وفي محيطه وفق قيم الوحي الحاكمة وشرائعه الموجّهة. وقد زوّد بالقدرات التي تمكنه من الاضطلاع بذلك، وكان الكون قابلا لفعله مسخرا له، وكان الوحي مُيَسَّرًا له متستجيبا لتساؤلاته ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل:٨٩). فإن ذلك يستتبع المحاسبة التي يُجزى بمقتضاها المحسنون عن إحسانهم، والمسيئون عن إساءتهم. وهذا البناء هو الذي يحرر الشعور النبيل المتسامي بالواجب وهو شعور انزرع في نفوس المسلمين فأثمر المسلكيات والممارسات التي رفعت في جمالية صرح الحضارات والثقافات الإسلامية الشامخة.

التعريف الشرعي للواجب

الواجب شرعا هو: "ما طلب الشارع فعله من المكلف طلبا حتما بأن اقترن طلبه بما يدل على تحتيم فعله، كما إذا كانت صيغة الطلب نفسها تدل على التحتيم، أو دلّ على تحتيم فعلٍ ترتيبُ العقوبة على تركه، أو أيةُ قرينة شرعية أخرى"[٤].

تجدر الإشارة هنا إلى أن الواجب عند جمهور الأصوليين لا فرق بينه وبين الفرض، وقد انفرد علماء الحنفية بالتمييز بينهما فقسموا الحكم التكليفي إلى سبعة أقسام عوض خمسة عند الجمهور، أولها الفرض، وميزوا بين الفرض والواجب بقولهم: "ما طلب الشارع فعله طلبا حتما وكان دليل طلبه قطعيا بأن كان آية قرآنية أو حديثا متواترا، فهو الفرض، كالأركان الخمسة مثلا، أما إن كان دليل طلب الفعل ظنيا بأن كان حديثا غير متواتر أو قياسا فهو الواجب"، ولهذا التفريق وجه من جهة إسعافه

في التمييـــز بين الواجبات المنصوص عليهـــا في العبادات وغيرها والأخرى المرســـلة التي ينفســـح فيها المجال للاجتهاد والتقدير، فيكون بذلك هذا التفريـــق في غاية الوظيفية. ويقترب من معنى الواجب في العلوم السلوكية: (Devoir, Duty).

وقد قســـم علماء الأصول الواجب إلى أقسام أربعة كل منها يستند إلى اعتبار:

القســـم الأول: الواجب من جهة وقت أدائه: ويكون مؤقتا أو مطلقا، ومثال المؤقت الصلاة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِـــينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾(النساء:١٠٣)، ومثال المطلق الحج والكفارة. والواجب المؤقت حين يوقع في وقته كاملا مســـتوفيا أركانه وشروطه يسمى ذلك أداء، وإذا فعله المكلف في وقته غير كامـــل ثم فعله داخل الوقت كاملا سمي ذلك إعادة، أما إذا فُعل خارج وقته فيسمى قضاء.[٥]

القســـم الثاني: مـــن جهة المقدار المطلوب: حيث ينقســـم الواجـــب بهذا الاعتبار إلى محدد وغير محدد، فالواجب المحدد ما عين له الشـــارع مقدارا معلوما لا تبرأ ذمة المكلف إلا إذا أداه، كالصلوات الخمس والزكاة والديون. والواجب غير المحدد، هو ما طلبه الشارع من المكلف بدون تحديد، كالإنفاق في سبيل الله، وإطعام الجائع، وإغاثة الملهوف.

القسم الثالث: من جهة تعيين ماهيته وصيغته وكيفيته: حيث ينقســـم الواجب بهذا الاعتبار إلى معيّـــن ومخيّر، فالمعيّن ما طلبه الشـــارع بعينه كالصلاة والصيام وثمن المشترى وأجر المستأجر وردّ المغصوب. والواجب المخير ما طلبه الشارع واحدًا من أمور معينة؛ كأحد خصال الكفارة لمن حنث في يمين مثلا، فعليه إما أن يطعم عشـــرة مساكين أو يكسوهم أو يعتق رقبة أو يصوم ثلاثة أيام، وتبرأ ذمة المكلف بالقيام بأحدها، وهو معنى التخيير.

القســـم الرابع: الواجب من جهة المطالب بأدائه، (هل هو مكلف بعينه أم عمـــوم المكلفين): وبهذا الاعتبار يكون الواجب إما عينيا أو كفائيا.

فالواجب العيني: هو ما طلب الشارع فعله من فرد من أفراد المكلفـــين، ولا يجزئ قيام مكلف به عن آخر، كالصلاة والصيام والوفاء بالعقود.

والواجب الكفائي: هو ما طلب الشـــارع فعله من مجموع المكلفـــين لا من كل فرد منهم بحيث إذا قـــام به من يكفي من المكلفين أجزأ ذلك وســـقط الإثم عن الباقين. قال الشافعي رحمه الله في الرسالة: "وهكذا كل ما كان الفرض فيه مقصودا به قصد الكفاية فيما ينوب، فإذا قام به من المسلمين من فيه الكفاية خرج من تخلّف عنـــه من المأثم، ولو ضيعوه معا خفت ألا يخرج واحد منهم مطيق فيه عن المأثم". ويدخل في هذا القســـم من الواجب كل مـــا يلزم الأوطان من خدمـــات عامة لا تتعلق بذمة مكلف بعينه كالتطبيب وبناياته ومســـتلزماته وصناعاته ومدارسه وإيجاد العدد الكافي للأمة من الأطباء والصيادلة ومؤسســـات تكوينهم وأماكن عملهم وخدمتهم ومصانع الأدوية والمعدات، وكحراسة الأوطان وحمايتها، وبناء المســـاكن والطرقـــات والقيام بواجب التعليم والقضاء والإفتاء. وغير ذلك مما لا يكاد يُحصر إذ تتجدد حاجات الأمم في كل حين.

والحاصـــل أن هذه الفئة من الواجبـــات هي مناط التكليف العام، وهـــو تكليف لا تبرأ ذمة الأمـــة إن لم تقم به على وجه الكفاية، بمعنى أن الجماعة جميعَها تأثم في هذه الحالة قادريها وغيرُ قادريها وهو قول الإمام الشـــاطبي المالكي الأندلسي رحمه الله في موافقاتـــه: "القيام بهذا الفرض قيام بمصلحة عامة، فهم مطلوبون بســـدها على الجملة، فبعضهم هو قادر عليها مباشرة وذلك من كان أهـــلا لها، والباقون وإن لم يقدروا عليها قادرون على إقامة القادرين. فالقـــادر مطلوب بإقامة الفرض، وغير القادر مطلوب بتقديم ذلك القادر، إذ لا يتوصل إلى قيام القادر إلا بالإقامة، من باب ما لا يتم الواجب إلا بـــه فهو واجب"[٦]. أي إنه في حالة عدم القيام بهـــذه الواجبات على وجه الكفاية يأثم القادر لإهماله واجبا قدَر علـــى أدائه إذ يكون متعيّنا عليـــه، ويأثم غير القادر لإهماله ما تعيّن عليه من حثّ القادر وحمله على القيام بالواجب المقدور له، وهذا هو البعد التضامني في القيام بالواجب.

وقد كان هذا الوعي متجذّراً عند علمائنا عامة وعند علماء هذه الربوع خاصة، ومن تمظهراته ما روي عن الإمام أبي عبد الله محمد بن علي المازَري المالكي نزيل المهدية رحمه الله المتوفى ســـنة ٥٣٦هـــ، وكان إذا أطلق لقب الإمام في إفريقية لا ينصرف إلى غيره لنبوغه وتمكنه في العلوم الشـــرعية. فحين علم رحمه الله أن الحاجة ماسة إلى الأطباء في هذه الأوطان خاف لفقهه من المأثم، إذ لمس في نفسه القدرة على القيام بهذا الواجب الكفائي، فتوجه إلى طلب علم الطب إلى أن صار وكما قيل عنه رحمه الله تعالى: "يفزع إليه في فتوى الطب كما يفزع إليه في فتوى الفقه".[٧]

إن هذا البناء التشريعي قد ألزم الأمة بامتياز ومنذ وقت مبكر جدا بالولوج إلى آفاق الهندسة الاجتماعية والإستراتيجيات العملية للبراءة من الإثم والفوز بالرضوان. وهو ما انتبه إليه الباحث الأمريكي (Jason Morgan Foster) حين قال: "ولأن الواجبات لها مركزية في الاعتقاد والتطبيق الإسلاميين، فإن لغة وبنية الواجبات تطورت في الشريعة الإسلامية، وهما إلى حد بعيد أكثر تركيبا من الإحالات البسيطة إلى الواجبات التي نراها في الإعلانات العالمية لحقوق الإنسان، فالشريعة الإسلامية عبارة عن مخطط عمل اجتماعي عقلاني المعنى لكل أفعال المسلمين والتي قد أُطّر مجملُها من مدخل الواجب"(٨).

وفي تراثنا العلمي عيون وذرر تؤكد ما انتبه إليه هذا الباحث. فقد جاء عن إمامنا مالك رضي الله عنه أنه سئل عن طلب العلم أفرض هو؟ فقال: "أما على كل الناس فلا" يعني به الزائد على ما لا يسع المسلم جهله من أركان وغيرها. وقال أيضا: "أما من كان فيه موضع للإمامة فالاجتهاد في طلب العلم عليه واجب، والأخذُ في العناية بالعلم على قدر النية فيه"(٩).

وللعلماء تفصيلات مشرقة في رسم إستراتيجيات تدبير الملفات الحيوية للأمة من هذا المدخل، ومن ذلك مثلا ما خطه الإمام الشاطبي في موافقاته عن الملف التعليمي، إذ قال: "فإذا فرض مثلا واحد من الصبيان ظهر عليه حسن إدراك وجودة فهم ووفور حفظ لما يسمع -وإن كان مشارِكا في غير ذلك من الأوصاف- مِيلَ به نحو ذلك القصد، وهذا واجب على الناظر فيه من حيث الجملة مراعاةً لما يرجى فيه من القيام بمصلحة التعليم، فطُلب بالتعلم وأُدِّب بالآداب المشتركة بجميع العلوم، ولا بد أن يُمَال به منها إلى بعض، فيؤخذَ به ويعان عليه، ولكن على الترتيب الذي نصّ عليه ربانيو العلماء، فإذا دخل إلى ذلك البعضِ فمال به طبعه إليه على الخصوص وأحبه أكثر من غيره تُرِك وما أحبّ وخُصّ بأهله. وهكذا الترتيب فيمن ظهر عليه وصف الإقدام والشجاعة وتدبير الأمور، فيُمال به نحو ذلك ويُعلَّم آدابه المشتركة ثم يصار به إلى ما هو أولى فالأولى من صنائع التدبير كالنقابة أو الجندية أو الهداية أو الإمامة أو غير ذلك مما يليق به وما ظهر له فيه نجابة ونهوض". وبذلك يتربى لكل فعل هو فرض كفاية قوم، لأنه يسير أولا في طريق مشترك، فحيث وقف السائر وعجز عن السير فقد وقف "في مرتبة محتاجٍ إليها في الجملة"، وإن كان به قوةٌ "زاد في السير إلى أن يصل إلى أقصى الغايات في المفروضات الكفائية". وبذلك تستقيم أمور الدنيا وأعمال الآخرة"(١٠).

وفي الجانب الاجتماعي يقول رحمه الله في "وجوب الصدقاتِ المطلقةِ وسَدِّ الخَلاَّت ودفعِ حاجات المحتاجين وإغاثة الملهوفين وإنقاذ الغرقى والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويدخل تحته سائر فروض الكفايات، فإذا قال الشارع: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾(الحج:٣٦) أو أمر بكسوة العاري أو قال ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾(البقرة:١٩٥) فمعنى ذلك طلبُ رفعِ الحاجة في كل واقعة بحسبها من غير تعيين مقدار؛ فإذا تبيّنت حاجة تبيَّن مقدارُ ما يُحتاج إليه فيها بالنظر لا بالنص، فإذا تعين جائع فهو مأمور بإطعامه وسدّ خلّته بمقتضى ذلك الإطلاق، فإن أطعَمَهُ ما لا يرفع عنه الجوع فالطلب باق عليه ما لم يفعل من ذلك ما هو كاف ورافعٌ للحاجة التي من أجلها أُمر ابتداء، والذي هو كاف يختلف باختلاف الساعات والحالات في ذلك المعيّن، فقد يكون في الوقت غير مفرط الجوع فيحتاج إلى مقدار من الطعام فإذا تركه حتى أفرط عليه احتاج إلى أكثر منه، وقد يطعمه آخرُ فيرتفع عنه الطلب رأسا، وقد يطعمه ما لا يكفيه فيُطلَب هذا بأقلّ مما كان مطلوبا به.

فإذا كان المكلف به يختلف باختلاف الأحوال والأزمان لم يستقرّ للترتيب في الذمة أمر معلوم يطلب ألبتة. فلا يكون معلوما إلا في الوقت الحاضر "بحسب النظر، لا بمقتضى النص". فإذا زال الوقت الحاضر "صار في الثاني مكلّفا بشيء آخر لا بالأول" أو سقط عنه التكليف إذا فُرِضَ ارتفاع الحاجة العارضة"(١١).

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

(١) زاد المسير، لابن الجوزي، ٤١/١.
(٢) لسان العرب لابن منظور، مادة "وجب"؛ تاج العروس للزبيدي، مادة "وجب".
(٣) الأدب المفرد، للبخاري، ص ١٤٦.
(٤) أصول الفقه، لعبد الوهاب خلاف، ص ١٠٥.
(٥) انظر: المستصفى، للغزالي، ص ٥٣؛ أصول الفقة، لعبد الوهاب خلاف، ص ١٠٥-١٠٧.
(٦) الموافقات، للشاطبي، ٢٨٤/١-٢٨٥
(٧) انظر: ترجمته في شجرة النور الزكية في طبقات المالكية.
(8) Yale Human Right and Development Vol.8 p.106.
(٩) الموافقات، للشاطبي، ٢٨٢/١.
(١٠) الموافقات، للشاطبي، ٢٨٦/١.
(١١) الموافقات، للشاطبي، ٢٤٧/١-٢٤٨.

بالقلب لا بالجسد أنت إنسان، وبالروح لا بالطين علوتَ الأرض، وتسلقتَ أسباب السماء.
فيا ويح من ظنك جسدا وطينا، وفما لوَّاكا وبطنا أكولاً،
وأدار للقلب ظهرا وأشاح عن الروح وجها.

***

لمسات الجمال في شواهد القبور العثمانية

طلحة أوغرْلوإيل*

إن لم تكن تفهم لغة شواهد القبور العثمانية عند دخولك إلى المقبرة، فلن ترى سوى أعمدة من الرخام متشابهة. ولكن ما إن تتفحص هذه الشواهد بدقة حتى ترى أن لكل منها سمة تميزها عن الأخرى. فإن لكل شاهد غطاء أو قلنسوة مختلفة. فهناك إشارات عديدة كل منها تدل على صفة من صفات الشخص المتوفى. وهذه القبور وشواهدها -بالنسبة لمن يفهم لسانها- مراقد لأشخاص من مهن ومشارب مختلفة. لأنك حيثما التفت رأيت سمات أشخاص مألوفين عندك، فتجد أشخاصاً من جميع المهن والمشارب والطبقات الاجتماعية يرقدون هناك.

الشاهد وجنس الراقد

يدل الشكل الخارجي لشاهد القبر وأنواع الزينة الموجودة عليه على جنس الراقد؛ فبينما يكون على شاهد الرجل ما يشبه القبعة أو العمامة، فإنّ شاهد قبر المرأة مزين بإكليل من الزهر. وهذه الزينات محفورة على شكل "مزهرية" أو على شكل زهور مختلفة كزهور السوسن وزهرة النجمة أو النرجس أو القرنفل أو

الشقائق أو الفوشية أو الزنبق أو أزهار الخوخ أو اللوز أو مع شـكل أغصان لشجيرات هذه الزهور (الصورة ١).

وعلى أشـكال هذه الزهور نرى فناً رفيعاً يهتم بالعديد مـن التفاصيل، فكأن كل زهرة على هذه النصب والشـواهد الحجرية تريد أن تقول شيئاً بلسان حالها لزائر المقبرة؛ فمثلا نرى في كثير من هذه الأماكن نقش زوج من الزنبق بخمس أوراق وكأنها يد ضارعة ممتدة للدعاء. وفي عهد "لَاله" (الزنبق)[1] تحولت هذه الزنابق إلى أشكال مجسمة، فأصبحت تحفر بثلاثة أبعاد. وبمرور الوقت بدأت هذه الزهور ترسم ضمن زهرية أو أصيـص الزهور. ونرى زينة الزهور موجودة إلى حد مّا على شواهد قبور الرجال. إذ كان شيخ الإسلام يضع زهرة أو وردة على طرف عمامته الكبـيرة، وكان الكاتب يضع ريشة على عمامته. وبعد انتشار الطربوش استمر تزيين أطراف غطاء الرأس فكان أسفل الطربوش يزين بصور الزهور. فانعكـس هذا الاهتمام بالجمال وامتد حتى إلى القبور وإلى شـواهدها فنتجـت ألوان من الجمـال المثير للإعجاب.

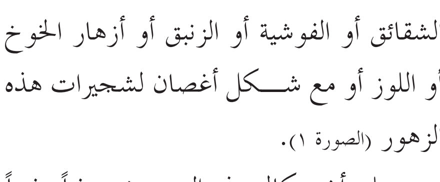
الشاهد ومهنة الراحل

وكما أن الأشـكال والرموز المنقوشـة على القبور تشـير إلى جنس الراقد، فإنها تشير إلى مهنتـه أيضاً. فإن كان بحاراً فلا بد من وجود إشـارة أو رمز أو شكل حول مهنته هذه على شـاهد قبره. فقد يكون الرمز صورة ساريةٍ أو شـراع أو مرساة أو شـارة البحرية العثمانية (الصورة ٢)... وهناك لحود بحارين تشـبه السفن


(الصورة ١)


(الصورة ٢)


(الصورة ٣)




(الصورة ٥)

وتحـاط جوانبها بحبال غليظة أو بسلاسـل حديدية تستعمل في السفن.

وأما إن كان المتـوفى كاتباً ويعيش على قلمه فلا بد أن تجد إشـارة ترمز إلى هذا، مثل شكل لفائف الورق أو ريشة كتابة أو قلم من القصب. وإن كان رساماً فتجد شارة الريشة أو المَلْوَن(الصورة ٣). وإن كان عسكرياً فسترى على شـاهد قبره إشارة إلى مهنته إما سيفاً أو مدفعاً أو خنجـراً أو قذيفة مدفع أو منظاراً مقرباً. وأما الضبـاط الذين وصلوا إلى رتب عاليـة في الجيش فهنـاك تفاصيل كثيرة على شواهد قبورهم، من صور لأسلحة، إذ يمكن القول، إنها تشـكل مخزن ذخيرة حربية. ولا توضع هذه الصور والأشكال بشكل عشوائي، بل حول شـارة الدولة العثمانية وحول طبل الحـرب، حيث تتراص حول الشـارة صور المدفع والسـيف والكنانة وصَوْلجان الحرب والبوق... والأسـلحة المختارة في هذا الطراز مـن التزيين تكون مما كان المتوفى يسـتعمله عندما كان حيًّا. كما تتم الإشـارة إلى رتبته العسكرية على جانبي شاهد القبر.

كثيراً ما كان العسـكري يختار شـارة الدولة العثمانية لتزيين شـاهد قبره (الصورة ٤). وقد وضعت شـارة الدولـة العثمانية لأول مرة في عهد السلطان سـليم الثالث. ونظراً لكون هذه الشارة تَحمل -إلى جانب الرموز العسـكرية- رموزاً دينية ووطنية، فقد أحبها الشعب وتبناها. لذا اسـتعملت هذه الشارة بشكل كبير في تزيين شواهد القبور وبخاصة في العهود التي تلت عهد السلطان سليم الثالث.


(الصورة ٤)

ووضعت تحت شـــارة الدولة العثمانية الأوسمة والميداليات التي حصل عليها المتوفى. فالعديد من شواهد باشوات الدولة العثمانية مزينة بوسام المجيدي أو الحميدي (الصورة ٥).



(الصورة ٦)

الشاهد ومشرب المتوفى

وهناك بعض الأشكال والرموز في شاهد القبر تشير إلى مشرب المتوفى. فإن كان مولوياً يعمل في الزاوية حفر على شاهد قبره شكل عمامة مولوية، أما المنتسب الاعتيادي فيكتفى بحفر سكة مولوية على شاهد قبره. وإن كان من مريدي الطريقة القادرية فنجد على الشاهد زخرفة تسمى "زهرة القادرية". وتتغير الزخارف المحيطة بالشكل الرئيسي حسب فروع هذه الطرق الصوفية. فمثلا يُرمز للفرع الرومي للقادرية بشكل تاج ذي ثمانية رؤوس في وسطه زهرة الطريقة القادرية (الصورة ٦). وفي شـــاهد مريد لفرع آخر من هذه الطريقة نجد نجمة ذات ثماني عشرة زاوية. وقد تحفر هذه النجمة عند شـــواهد بعضهم ضمن تاج حوله عمامة. أما على شواهد أتباع الطريقة "البَيرامية" الذين كانوا يلبســـون قلنسوة سداسية فنجد شـــكل هذه القلنسوة. بينما نجد على شواهد أتباع الطريقة النقشبندية تاجاً ذا أهداب. وأما أتباع الطريقة السنبلية التي أسسها الشيخ "ســـنبل سنان" فتحفر على شواهد قبورهم شكل السنبلة كرمز لطريقتهم الصوفية. ولا يقتصر التعريف بمشـــرب الراقد برموز طريقته الصوفية، بل أيضاً بالأشياء التي كان أتباع تلك الطريقة يكثرون من استعمالها. فنجد مثلاً في شواهد قبور أتباع الطريقة البكتاشية أشكال الكشكول[٢] والفأس وحجر التسليم[٣] ذي اثنتي عشرة زاوية.



(الصورة ٧)

غربيون تأثروا بالشواهد

عند الولوج إلى مقبرة عثمانية لا يداخل الإنســـان أي ضيـــق أو اكتئاب، لأن الرموز المختلفة والزخارف المتنوعة على كل شـــاهد من شـــواهدها، تُطْلع الإنسان على معان عميقة وتبين له الوجـــه الجميل للموت. وهذا الجمال المثير جلب انتباه الأجانب مثلما جلب انتباهنا. فنرى أن العديد من السياح الأجانب الذين زاروا الدولة العثمانية تأثروا بمنظر قبورها حيث نرى السائح "أدموندو أميك" الذي زار هذه البلاد قبل مئات السنين يقول:

"حول الجامع، تحت ظلال الأشجار الباسقة، بين الأزهار المتنوعة المتلونة، ارتفعت أضرحة السلاطين والوزراء وكبار رجال القصر. ارتفعت الأضرحة الرخامية التي زُينت بالنقوش البديعة المجســـمة. إنها مدينة أضرحة أخاذة، ساد الهدوء فيها واحتضن البياض تربتها وأورف شجرها وأظل.. أو إنها حي أرســـتقراطي قد لفه جمال أخروي حزين وألقى في قلب الزائر أحاســـيس التوقير والاحترام والمهابة. هنا في حديقة المقبرة ترى الأكاليل الخضراء المتدلية بشـــكل باقات، والجدران البيضاء التي ترتفع عليها أغصان أشـــجار الخرنوب والبلوط والرياحين، وتدخل من مشـــبّكات الضريح الحديدية المزخرفة ومن نوافذها القوسية الشكل ضمن حُزَم ناعمة من نور الشمس حيث تتلون هذه القبور الرخامية بالظلال الخضراء للأشجار. لا تجد في أي مكان آخر في إســـطنبول مثل هذه الأناقة والرقة للفن الإسلامي الذي يُجمّل صورة الموت ويجعلك تتأمله دون خوف. لذا فهذا الضريح الجميل الأنيق هو في الوقت نفســـه حديقة وقصر ومعبد يجعلك تردد الأدعية من جهة، وتبتسم ابتسامة حزن وأسى من جهة أخرى".



(الصورة ٨)

ويقول أحد الغربيين المشـــهورين المختصين بالمقابر العثمانية إن التجول في هذه المقابر يعد

من أكثر الأمور إثارة ويضيف: "عندما أتســلق الطريق نحو مقبرة أبي أيوب الأنصاري أحس وكأنني قد اكتشفت قمة لم يكتشفها أحد قبلي في جبال هملايا".

ولم يقتصر هذا الإعجاب على هذين الباحثين، فهناك العديد من الكتاب والســياح الأجانب منهم "بارلت" و"سباتير" و"لوتي" و"باردو" و"نرفال" وغيرهم تأثروا بعمق من هذه المقابر وذكروها بإعجاب في كتبهم.


(الصورة ٩)

والحقيقة أن شــواهد القبور العثمانية لم تكن أبداً مجرد أحجار تعطي معلومات عن هوية الشــخص المتوفى، بل كانت تشــير إلى مستوى الرسم البديع والفن الرفيع اللذين أنجزهما العثمانيون منذ قرون، ولم يكن الغرب هو وحده الذي أوجد هذا الفن كما يدعي.

الشاهد وأشكال معبرة

ولم يتم الاكتفاء هنا برســم العناصر والمواد فقط، بل تم تحميلها بمعانٍ عميقة. فمثلاً إن أهم شــيء يمكن عملــه للميت هو الدعاء له. وهذا الدعاء نجده قد تحول إلى شــيء مادي ملموس معروض لأنظار جميع زوار المقبرة. وإن أهم دعاء للميت وأكثره شــيوعاً هو "جعل الله قبره روضة من رياض الجنة". وإذا ما أمعنا النظر في شواهد القبور العثمانية رأينا أن الدعاء قد انقلب إلى رسوم وأشكال. فأصحاب هذا الفن قد نجحوا في ترجمة الدعاء برسمهم فواكه الجنة على الشاهد. فلسان حالهم يقول: "لقد نحتنا هذه الفواكه على شــاهد قبر المتوفى داعين الله أن يهبها إياه في الجنة". ومن ثم نرى أن الفواكه التي ذكرت في القرآن الكريم نحتت على هذه الشــواهد، لا ســيما التمر، والنخيل المثقلة بهذا التمر (الصورة ٧). وعادة ما تغطي أشــكال ونقوش سعف النخل سطح الشاهد وتنتشــر فيه بأكمله. وفي القسم الأسفل من الشاهد تتدلى عذوق النخل وســعفها. فنرى في العديد من الشواهد، الأشكال والنقوش لعناقيد العنب والنخل والتمر والرمان وأشــجار الزيتون (الصور ٨-٩). فأمام هذا الفن وهذه الزخارف لا نملك إلا ســؤال الله تعالى أن يرزق صاحب هذا القبر هذه الثمار ويطعمه منها.


(الصورة ١٠)

ومن أكثرما نحت على الشــواهد شجرة الســرو (الصورة ١٠). وذلك لحكَم دقيقة مثل كونها شجرة دائمة الخضرة في الصيف والشتاء، ولها عطر خاص بها. وبسبب هذا العطر لا تقربها الحشرات ولا تتكاثر فيها. كما أنها بقامتها المســتقيمة أصبحت في نظر البعض رمزاً لحرف الألف الذي هو الحرف الأول من كلمة الجلالة "الله"، كما أنها ترمز إلى التوحيد، وبقامتها المديدة والمســتقيمة ترمز إلى الاستقامة والحقيقة أيضاً.

ومن أكثر الأشــكال التي تلفت أنظارنا على الشواهد هو القنديل. وقد نحت بأشكال متعددة بلغت الأربعــين. وكل هذه القناديل تبدو معلقة بسلســلة حديدية. تُربط هذه السلســلة بفم القنديل تارة، وبالحلقات الثلاث الموجودة في جانبه تارة أخرى. والمقصود من رسم القنديل على شاهد القبر هو التنوير، أي التنوير الإلهي لقبر المتوفى. وأحياناً ينقش اسم الجلالة على القنديل.


(الصورة ١١)

ومن الأشــكال الأخرى التي تجلب النظر في شواهد القبور هي نقش الخنجر (الصورة ١١). فالخنجر هو الســلاح المســتعمل في القتال القريب، وله نصل مقوس أو مستقيم، وهو سلاح حاد الطرف يوضع في قراب محمول على جانب الإنسان. وفي شواهد القبور العثمانية المفتوحة يرسم الخنجر على جانب اللحد. وفي القبور المغلقة يرسم فوق اللحد. وصور الخنجر وأشكالها واحدة، فرأس قبضة الخنجر يكون مروحي الشــكل، أما القبضة نفسها فمنتظمة قليلاً. وترسم الخناجر وهي في جرابها، مما يعني أن صاحب الخنجر

قد مات. وينتهي الخنجــر بنهاية منحنية، ويتجه الجزء الحاد منه نحو قدم صاحب القبر.

أكثر الرســوم والنقــوش والزينات التي تأخذ محلها في شــواهد القبــور العثمانية، هي القبور التي لها لحــود. ففيها نرى أن أوجه اللحد تكــون كلها مغطاة بهذه النقوش وكأنها حديقة من الأزهار والورود (الصورة ١٢).

وأحيانــاً نجد في القســم الأمامي أو الوســطي من لحد القبر زخرفةَ وردة على جانبيها مزهريتان فيهما الورود وأزهار النجميــة أو الزنابق والقرنفل. وفي بعض اللحود نشــاهد نقوش حراشف الســمك في إطار يلتف حول الجزء العلوي من اللحد أو نقوش زهرة اللوتس (النيلوفر). وفي اللحود الحجرية نرى في قسم الرأس والقدم نقوشــاً لشــموس نصفية مقسمة إلى شرائح تقترن بشاهد القبر. وتوجــد عادة في داخل نقش الشمس في القسم العلوي بعض الكتابات. ويتصل القسم العلــوي للّحد علــى صورة سقف مثلث الشــكل. وعادة ما يتزين القسم العلوي من اللحد بنقوش وأنواع مــن الزينات، بحيث يبدو وكأنه قماش مزين.



(الصورة ١٢)

وقد شــيدت القبور اللحدية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ولكن يمكن مشاهدة قبر قديم ذي لحد في مقبرة أبي أيوب الأنصاري في قبر بنت الســلطان أحمد الثالث الأميرة "صالحــة"، حيث نرى النقوش على جميع أوجه اللحد بشــكل أعمدة صغيرة متصلة بعضها ببعض بالأقواس. وفي وســط كل قوس نرى وجــود صدَفة مَحار. وفي بعض لحــود القبور نرى نقوشــاً لأعمدة على شــكل الســاعة الرملية. وتغطى الرموز الموجــودة على وجوه بعض اللحود بنقوش لأوراق الحرشــف البري. كما تغطي أشكال هذه الأوراق جهة القدم وجهة الرأس في بعض اللحود. وتوجد أحياناً مشكاة في الأوجه الضيقة من اللحد. أما نقوش القمر والنجمة لمجسمة والموجودة فوق كل مشكاة وبين الأعمدة المنقوشة فيها (الصورة ١٣)، فتعــود في معظمها إلى ما بعد عهد المشروطية الثانية.

ولمــا كان الغــرض من شــواهد القبور هــو تعريف صاحــب القــبر إلى الأحياء، وطلــب قــراءة الفاتحــة على روحه، فإن أوجه اللحود المتوجهة إلى الطريــق تكون أكثــر زينة لجلب الأنظــار إليها. لــذا فإن الرمــوز الخاصة توضع عادة على الجانب المطل على الطريق.



(الصورة ١٣)

لا يمكــن إيفاء حق وصف الزينات والنقوش لهــذه المقابر التاريخية التي هي بمثابة متاحف مفتوحة عامة لفن الرخام والتي جلبت أنظار العالم بأكملــه. ومن يفهم لغة هذه النقوش والرموز فسيجد في كل شكل وفي كل نقشة معلومة حول صاحب القبر. إن كل شاهد قبر يقول بلســان حاله "إن الموت ليس عدماً، وهو يحمــل معاني دقيقة وعميقة"، ثم يعــرض هذه المعاني بفن رفيع ونقش بديع تتمتع به الأنظار وتســتروح القلوب.■

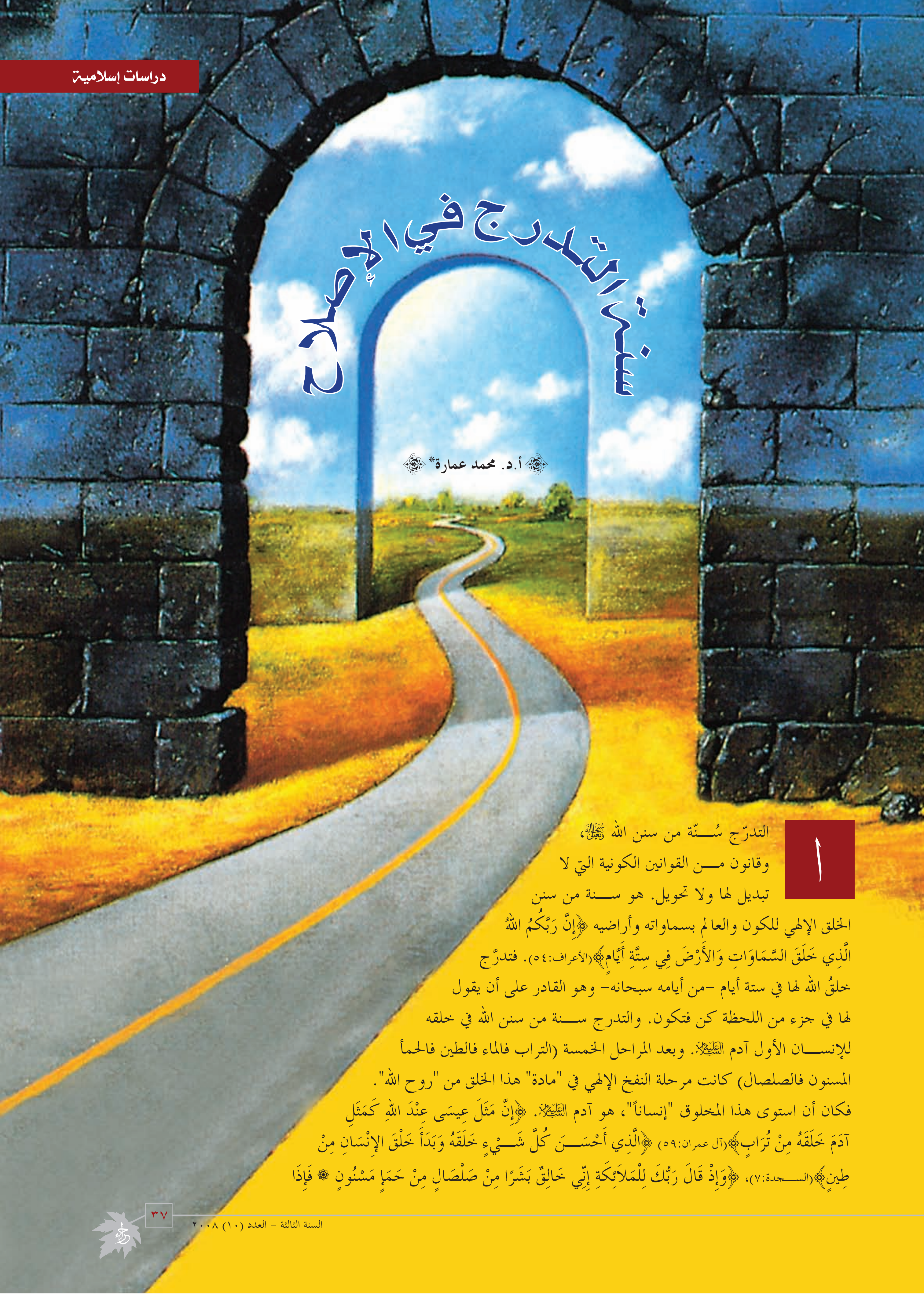
(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

الهوامش

(١) عهد لاله (١٧١٨-١٧٣٠م): وهو عهد اهتــم فيه الخاصة والعامة في الدولة العثمانية بزرع زهرة الزنبق التي تدعى في التركية لاله. (المترجم)

(٢) الكشــكول: وعاء من قشرة جوز الهند كان الدراويش يستعملونه كوعاء أكل وكان يدعى آنذاك "وعاء الفقير". (المترجم)

(٣) حجر التســليم: حجر على شــكل نجمة ذات اثنتي عشرة زاوية كان دراويش البكتاشية يحملونه في أعناقهم. (المترجم)



سنن التدرج في الإصلاح

أ.د. محمد عمارة*

التدرّج سُـنّة من سنن الله ﷻ، وقانون مـن القوانين الكونية التي لا تبديل لها ولا تحويل. هو سـنة من سنن الخلق الإلهي للكون والعالم بسماواته وأراضيه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾(الأعراف:٥٤). فتدرَّج خلقُ الله لها في ستة أيام –من أيامه سبحانه– وهو القادر على أن يقول لها في جزء من اللحظة كن فتكون. والتدرج سـنة من سنن الله في خلقه للإنسـان الأول آدم عليه السلام. وبعد المراحل الخمسة (التراب فالماء فالطين فالحمأ المسنون فالصلصال) كانت مرحلة النفخ الإلهي في "مادة" هذا الخلق من "روح الله". فكان أن استوى هذا المخلوق "إنساناً"، هو آدم عليه السلام. ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾(آل عمران:٥٩) ﴿الَّذِي أَحْسَـنَ كُلَّ شَـيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾(السـجدة:٧)، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۞ فَإِذَا

سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(الحجر:٢٨-٢٩).

وبسنة التدرج عبر الأطوار والمراحل كان خلق الله وتكوينه لكل مخلوق من ذرية آدم عليه السلام ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(المؤمنون:١٢-١٤). فكان التدرج سنة كونية مطردة في خلق الله للعالم وللإنسان الأول ولكل إنسان. كذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون التدرج والتطور سنة مطردة في مسيرة الشرائع السماوية التي جعلها سبحانه "لطفاً" لهداية الإنسان. فمع وحدة الدين عبر حقب وأمم النبوات والرسالات كان تدرج وتطور الشرائع مع واقع هذه الأمم ومع نمو المستوى العقلي لأمم هذه الرسالات.

عصر النبوة وسنة التدرج

وحتى في الشريعة الإسلامية كان التدرج سنة مطردة ومرعية. فهذه الشريعة الخاتمة والخالدة قد بدأت -في المرحلة المكية التي استغرقت ثلاثة عشر عاماً- بإعادة صياغة الإنسان والجماعة المؤمنة والجيل الفريد وفق معالمها ومنظومة قيمها، أي بدأت بالدرجة الأولى في سُلّم التغيير الكبير والجذري والشامل والعميق.. تغيير النفس الإنسانية كي تصبح قادرة على تغيير الواقع وفق المنظومة القيمية الإيمانية ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١). وكذلك كان الحال "التدرج" في المرحلة المدنية التي استغرقت عشر سنوات. فامتلاك الجماعة المؤمنة (الأمة) للحضارة وأركانها، لم يجعل "الطفرة" تحل محل "التدرج"، ولا "الثورة" تحل محل "الإصلاح" في استكمال التشريع واكتمال التطبيق لشريعة الإسلام. فمع تدرج الوحي "المنجّم" واكب التشريع والتطبيق للتشريع تطور التغيير المتدرج للإنسان الذي سيقيم كامل الشريعة، وللواقع الذي لابد من تهيئته لتقبل كامل الشريعة.

فنظام المواريث طبّق في السنة الثالثة للهجرة، أي بعد ستة عشر عاماً من بدء الوحي. والنظام الإسلامي للأسرة من الزواج والطلاق والنفقة وسائر أحكامها اكتمل تشريعه وتطبيقه في السنة السابعة للهجرة، أي عبر عشرين عاماً من بدء الوحي. والقوانين الجنائية تدرج تشريعها وتطبيقها مادة مادة، حتى اكتملت في السنة الثامنة للهجرة، أي عبر واحد وعشرين عاماً من عمر الوحي الخاتم. وتدرجت أحكام الخمر من الذم لها والتحذير منها إلى التحريم القاطع والنهائي لها في السنة الثامنة للهجرة، أي في العام الواحد والعشرين من بدء الوحي. وكان تحريم الربا في السنة التاسعة للهجرة، وذلك بعد أن تخلّق في الواقع الإسلامي للمجتمع الجديد والأمة الوليدة اقتصاد إسلامي بديل حلّ محل الاقتصاد الجاهلي القديم. وعند ذلك أصبح تطبيق الفلسفة الجديدة للنظام اللاربوي ومعاملاته أمراً ممكناً.[1]

بل إن هذا التدرج قد كان سنة مرعية ومطردة أيضاً في الشعائر والعبادات -بما فيها الكثير من أركان الإسلام- وليس فقط في أحكام الواقع والمعاملات. فالصلاة بصورتها التامة والحالية اكتملت فريضتها ليلة الإسراء والمعراج في السنة الثانية قبل الهجرة، الحادية عشرة من البعثة. والصوم فرض بالمدينة وكذلك الزكاة والحج إلى بيت الله الحرام.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق كل شيء بقدَر وقدَّره تقديراً، وجعل السنن والقوانين حاكمة لكل عوالم الخلق والوجود والاجتماع الديني والإنساني ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾(الفتح:٢٣)، فلقد شاء سبحانه أن تكون سنة التدرج حاكمة في كل ميادين التغيير. فالحديث عن "الطفرات" و"الثورات" و"الانقلابات الفجائية" لا يعدو أن يكون حديثاً عن "هبّات" مفارقة لسنن التدرج، تقف عند حدود الغضب والهياج أو الأماني والأحلام. فحتى الجراحات لا تتم إلا بعد تدرج المرض وتطوره ولا تؤتي ثمارها في الشفاء إلا بعد تدرج في العلاج.

وإذا كنا قد أشرنا إلى سنن التدرج في الإصلاح الديني، فإن لرسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً أراه من جوامع الكلم التي عبرت عن فلسفة السنّة الحاكمة لكل ألوان التغيير الذي يصيب الاجتماع الإنساني عبر التاريخ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها. فالتغيير الذي يصيب الاجتماع الإنساني هو "دورات متواليات" وليس خطا مستقيماً، صاعداً نحو الصلاح أو هابطاً نحو الفساد.. هو "دورات" يتعاقب فيها العدل والجور والصلاح والفساد، مع التدرج والتطور في هذا التغيير نحو الصلاح أو الفساد.

وفي هذا الحديث النبوي الشريف الذي جاء نبوءة حاكمة لكل ألوان التغير وعوالمه في الاجتماع الإنساني يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يلبث الجور بعدي إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله حتى يولَد في العدل من لا يعرف غيره" (رواه الإمام أحمد).

فدورات العدل والجور وحقب الصلاح والفساد هي السنة التي تحكم سير الاجتماع الإنساني. والتغيير في هذه الدورات

محكوم بسنة التدرج، فبقدر الجور والفساد الذي يظهر وينمو يكون قدر العدل والصلاح الذي يتوارى، وكذلك الحال في الدورات العكسية، حتى لكأننا أمام التدرج في ظاهرتي الشروق والغروب للشمس مثلاً دونما "طفرة" أو "انقلاب فجائي". بل إن ما يحسبه البعض "طفرة" أو "فجأة" إنما هي لحظة في سلك التدرج وتوالي التطور والتغيير.

التاريخ الإسلامي وسنة التدرج

والذين يفقهون حقيقة التغيرات التي أصابت الاجتماع الإسلامي بعد عصر النبوة، سواء منها التغيرات السلبية أو الإيجابية، والفساد الطارئ منها أو الإصلاح الذي غالَب الفسادَ وتدافع معه سيجدون المصداق والتصديق لهذه السنة –سنة التدرج في التغيير– التي تحدث عنها هذا الحديث الشريف لرسول الله ﷺ. فالتغيرات التي أصابت نموذج العصر النبوي والعصر الراشدي، والتي جاءت من وافد مواريث البلاد المفتوحة وثقافات الشعوب التي دخلت في إطار الرعية والأمة بأسرع مما غيرت نفوسها قيم الإسلام، والتي جاءت أيضاً من النفوس التي تغيرت عندما ابتعدت عن وهج النور الرسالي للعهد النبوي.. هذه التغيرات التي أصابت قيم ونظم الشورى والعدل الاجتماعي أكثر من سواها وقبل سواها لم تحدث فجأة ولا طفرة، وإنما حكمتها سنة التدرج في الاتجاه نحو الجور والظلم والفساد.

وكذلك الحال مع التغيرات التي جسدها حقبة الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز ﷺ والتي أحلّت العدل محل الجور، والصلاح محل الفساد، وردت المظالم إلى أصحابها، والتي مثلت ملحمة من ملاحم التجديد والتغيير العادل في الاجتماع الإسلامي. هذه التغيرات العادلة والصالحة لم تتم فجأة ولا طفرة، وإنما تدرجت عندما بدأها الخليفة بنفسه فزوجِه فأمراءِ بني أمية وصولاً إلى كل الذين اغتصبوا ما ليس لهم من مال الأمة وبيت مال المسلمين.

ولقد عبر عمر بن عبد العزيز عن تلك التغييرات التي تدرجت بالاجتماع الإسلامي نحو الجور والمظالم والتي ورثها الخليفة عن الذين سبقوه من خلفاء بن أمية، عبّر عنها الخليفة العادل عندما وصف الواقع الاجتماعي في ميدان الثروات والأموال، والتغييرات المتدرجة التي نقلته من العدل إلى الجور، فقال: "إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً ﷺ رحمة –لم يبعثه عذاباً– إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده فقبضه إليه، وترك للناس نهراً شربهم فيه سواء. ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله. ثم ولي عمر فعمل على عمل صاحبه. فلما ولي عثمان اشتق من النهر نهراً. ثم ولي معاوية فشق منه الأنهار. ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إليّ وقد يبس النهر الأعظم. ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم كما كان عليه"[٢].

وكما تمت التغييرات السلبية من العدل إلى الجور بالتدرج، بدأ عمر بن عبد العزيز ملحمة التغيير من الجور والظلم إلى العدل والصلاح بالتدرج أيضاً، فبدأ بنفسه عندما جعلها القدوة الصالحة والعادلة، وعندما رد جميع المظالم التي ورثها عن أسلافه إلى بيت مال المسلمين وقال وهو يرد "إقطاع فَدَك": "إن أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه ولا لهم أن يعطونيه"[٣].

لقد جعل عمر بن عبد العزيز من عامَي خلافته سلسلة متدرجة ومتصلة من "رد المظالم" انتقلت بالاجتماع الإسلامي من الجور إلى العدل ومن الفساد إلى الصلاح حتى لقد قالوا: "إنه ما زال يرد المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات"[٤]. كما عبر عن وعيه بضرورة التدرج في هذا التغيير الإصلاحي رغم شوقه للعدل وحماسه الشديد للإصلاح واستعداده لأن يبذل روحه في سبيل هذا الإصلاح. فمع قوله: "لو كان كل بدعة يميتها الله على يديّ وكل سُنّة ينعشها الله على يديّ ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيراً"[٥]. إلا أن حماسه للإصلاح واستعداده للفداء والاستشهاد في سبيله لم يدفعه إلى محاولة إتمامه فجأة وطفرة، وإنما سلك إليه سبيل التدرج ودافع عن هذا المنهاج في التغيير في حواره مع ابنه عبد الملك الذي كان يتعجل التغيير والإصلاح فقال لأبيه: "يا أبت، ما لك لا تنفذ في الأمور؟! فوالله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبك القدور!"، فرد عليه عمر بن عبد العزيز، بحكمة رجل الدولة وخبير الإصلاح والفقيه في سنة التغيير التدريجي قائلاً: "لا تعجل يا بني! فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدَعوه وتكونَ فتنة"[٦].

فلقد كان هذا الراشد العادل واعياً بسنة الله في التدرج بالإصلاح والتغيير العادل وعارفاً بضرورات التعايش مؤقتاً مع مقادير من الجور والظلم والفساد حتى يحين الحين فيحل بالتغيير التدريجي محلها بدائل العدل والإصلاح، بل لقد تحدث صراحة عن هذه الحقيقة من حقائق سنة التغيير، فقال: "إني لأجمع أن أخرج للمسلمين أمراً من العدل فأخاف ألا تحتمله قلوبهم، فأخرج معه طمعاً من طمع الدنيا، فإن نفرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا"[٧]. فهو هنا يتجاوز هذا المستوى إلى الحديث عن مستوى آخر، وهو "تغليف" العدل

بشـــيء من "طمع الدنيا" كـــي تتقبله النفوس الـــتي "تغلفت" بقيم الاجتماع الفاســـد والجائر الذي طرأ علـــى حياة الناس.

وتلك –لعمري– عبقرية في فقه التدرج بالتغيير جسدها تجربة الراشـــد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبـــد العزيز، وعبّرت عنها كلماته الراشـــدة الحكيمة في فلسفة هذا المنهاج، وجسدها تجربته العملية التي لا زالت مضيئة في تاريخ الإصلاح الإسلامي، تستحث خطا المصلحين على هذا الطريق.

مرتكزات أساسية في الدعوة

تلك هي سنة التدرج كما تجلت في السنن الإلهية الكونية في خلق العالم وخلق الإنسان، والسنن الإلهية التاريخية في الوحي بالشرائع الســـماوية الهادية للإنسان، والتطبيقات النبوية لسنة التدرج هذه في الاجتماع الإســـلامي بالدولة الإســـلامية الأولى، والإصلاح الإســـلامي الراشـــد كما تمثل في تجربة الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز ﷺ.

إن إعمال هذه السنة الإلهية الكونية في ميدان الإصلاح والتغيير للواقع الإســـلامي الراهن الذي أفسد التغريب الكثير من نواحي فكره وثقافته وإعلامه ومنظومة قيمه لا بد وأن يعني سلوك طريق التدرج في هذا التغيير المنشود. فبقدر ما تتكون الكتيبة التي تبدع البدائل الإسلامية المحكومة بالقيم الإسلامية في الثقافة والإعلام، وبقدر ما تطل هذه البدائل الإســـلامية على الواقع المعيش، بقدر ما تكون بدايـــات التغيير للواقع الاجتماعـــي للثقافة والإعلام وتوجه هذا الواقع نحو الانضباط بمنظومة القيم الإسلامية. وبقدر التغيرات الجزئية والتدريجية التي يحدثها الإبداع الثقافي والإعلامي الإسلامي في الواقع الاجتماعي بقدر ما تتزايد المساحات المحكومة بالقيم الإســـلامية في الإبداع الفكري والثقافي والمادة الإعلامية.

وعلينا أن ندرك في صراحة ووضوح أن سنة التدرج هذه إنما تعني مصاحبة الصلاح الإسلامي الجديد حينا من الدهر لكثير أو قليل من الفســـاد التغريـــبي الوافد والموروث. وأن نتذكر جيداً ودائماً منهاج الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز في التدرج الإصلاحي والإصلاح المتدرج الذي لم يقف فقط عند التعايش مؤقتاً مع مقادير من الجور الموروث، وإنما ســـلك سبيل "تغليف" العدل ببعض طمع الشهوات في زينة الحياة الدنيا وصولاً إلى إحلال العدل الخالص محل الجور والطمع والشهوات.

تلك هي سنة التدرج، وهذا هو قانونها الحاكم في كل عوالم الخلـــق والإصلاح والتغيير، وذلك هو منهاجها في الخروج بأمتنا من واقعها الفكري والثقافي والإعلامي الراهن إلى حيث الإصلاح الإسلامي المنشود، مع ضرورة:

- صدق النية في الإصلاح الكامل قدر الطاقات والإمكانات وليس مجرد "الترقيع" والاكتفاء بسياســـة مجاورة الصلاح للفساد والتعايش بينهما بدعوى وضع النمـــاذج المختلفة أمام الأذواق المختلفـــة. فإصلاح الأذواق هو هدف من الأهداف الرئيســـية للإصلاح. وعلينا أن نميز بين صدق النوايا في التدرج الإصلاحي وبين النوايا الكاذبة التي تتحدث عن "التدرج" بينما يضع أصحابها النموذج الإسلامي في "الأدراج". فبالنية الصالحة وبالعزم الصادق وبالتخطيط الراشد والتنفيذ الواعي وفق سنة التدرج تتحقق آمال المصلحين في الإصلاح.
- وعدم الاكتفاء بالنوايا الصادقة في الإصلاح الكامل، وإنما العمل المتواصل على تقـــديم النماذج الثقافية والإعلامية الصالحة (تقديم المثال الإســـلامي)، وتنمية مساحة هذا "المثال" باستمرار ليتوارى مع نموه النموذجُ الفاسد والسلبي في الثقافة والإعلام.
- وتقديـــر الضرورات بقدرها. وذلك حتى لا تنفلت معايير الضرورات في التعايش مع نماذج من الثقافة الســـلبية. والحرص على أن تكون هناك موازنات بين الســـيئ والأسوأ والأقل سوءاً في المادة التي يتم التعايش معها مؤقتاً.
- وكما يجب إعمال قاعدة "ســـد الذرائع" إلى الأسوأ فإن بالإمكان إعمال قاعدة "فتح الذرائع" إلى الأقل سوءاً إذا أفضى التعايش المؤقت معه إلى الصلاح الأكثر والأعم.
- مع الحرص على أن تكون هناك منابر ثقافية وإعلامية خالصة الإسلامية تمثل مراكز للتوجيه والتعريف بالنموذج الإسلامي ودائمة الإشـــعاع على سائر الساحة الثقافية والفضاء الإعلامي. فضرب الأمثال وانعطاف قطاعات واسعة من الجماهير نحو هذه النماذج هو من أفعل الوسائل في تنمية الإصلاح بميادين الثقافة والإعلام.■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

الهوامش

(١) القانون الإسلامي، لأبي الأعلى المودودي، ترجمة: محمد عاصم الحداد، بيروت، ١٩٧٥م، ص ٥١، ٥٢.

(٢) كتاب الأغاني، للأصفهاني، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الشـــعب، القاهرة، ٩/٣٣٧٥، ٣٣٧٦.

(٣) فتوح البلدان، للبلاذري القاهرة ١٣١٩هــ، ص ٢٩؛ الكامل في التاريخ، لابن الاثير، القاهرة ١٣٠٣هــ. ص٢٤.

(٤) كتاب الطبقات، لابن سعد، دار التحرير، القاهرة، ٥/٢٥١.

(٥) عمـــر بن عبد العزيز: ضمـــير الأمة وخامس الراشـــدين، د. محمد عمار ةدار الوحدة، بيروت ١٩٨٥م، ص ٢٢٦.

(٦) العقد الفريد، لابن عبد ربه، القاهرة ١٩٢٨م، ٤/٤٠.

(٧) المصدر السابق، ٢/٢٣٢.

المضمون الفكري
للأدب الإسلامي المعاصر



أ.د. عماد الدين خليل*

ابتداء يتحتم التأكيد على أن أي حديث عن المضمون الفكري للأدب الإسلامي المعاصر، يجب ألاّ يَغفل لحظة عن التقنيات الفنية الملتحمة بالمضمون والحاملة لهمومه، والقديرة –وظيفياً– على توصيله إلى المتلقي بأكبر قدر من "التأثير". تلك هي مهمة الأدب على إطلاقه وعبر أجناسه كافة. وأي اختلال في التناسب بين الشكل والمضمون، سيميل بالميزان صوب "المضمونية" التي تضعف العمل الإبداعي، وربما تخرج به عن أن يكون أدباً.

فإذا ما عرّفنا الأدب الإسلامي بمفاهيمه المعاصرة، بأنه "تعبير جمالي مؤثر بالكلمة عن التصوّر الإسلامي للوجود"، وجدنا أنفسنا أمام العنصرين الأساسيين للعمل الأدبي، وهما: "التصوّر" و"الجمال". هذه المسألة لا يكاد يختلف فيها اثنان في العالم كله، وإن كان بعض أدبائنا ونقادنا الإسلاميين لا يزالون يرمون بثقلهم صوب المضمونية ويمارسون نوعا من التهميش، بدرجة أو أخرى، للقيم الجمالية التي يتحتم أن تلتحم بالمضمون.

المضامين الفكرية

فإذا ما جئنا إلى المضمون الفكري وجدنا المذاهب الأدبية كافة (فيما عدا البرناسية بطبيعة الحال)، تحمل وتبشّر بمنظومة من القيم التصوّرية، كل وفق الشبكة التي تؤسس لذلك المذهب. وإذا كان الأمر غائماً بعض الشيء في الكلاسيكية، والكلاسيكية الجديدة وربما الرومانسية، فإنه واضح تماماً في الواقعية، والواقعية الاشتراكية والرمزية والوجودية والمذاهب التالية؛ كالسريالية والعبثية (الطليعية)، وتيارات الحداثة المتدفقة التي يضرب بعضها بعضاً ولا يزال.

في حالة كهذه، ألا يحق للأدب الإسلامي أن ينطوي على مضمونه الفكري بما أنه ينبثق عن العقيدة الأوسع فضاء، والأغنى خبرات، والأغزر مفردات وعطاء باعتبارها إضاءة متفردة يلتقي فيها الوحي بالوجود، وتتلقى تعاليمها من الله سبحانه، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وتفتح جناحيها على الإنسان والعالم والكون والمصير؟

إن الخبرة الإســـلامية في أعمق مجاريها الإيمانية خفاءً، وأكثر تجلياتها الفكرية إشـــراقاً، تضع بين يـــدي الأديب والفنان ثروة هائلـــة من المفردات، وشـــبكة عريضة من التجـــارب والرؤى والتأسيسات، التي يمكن للأديب أن يستمد منها مِدماكه في هذا الجنس الأدبي أو ذاك. وإن المســـاحات التي تنسج فيها المضامين الفكريـــة للمذاهب الأدبية كافة لتتضاءل أمام الفضاء الواســـع والســـماءِ الكبيرة والمفتوحة للمعطى الرؤيوي الإســـلامي الذي لا حدود لشـــواطئه.إن المرء ليتذكر هنـــا عنوان كتاب للمفكر الفرنسي "رجاء غارودي" بعنوان "واقعية بلا ضفاف".

وإن المضمون الفكري للأدب الإســـلامي الذي يتعامل مع الواقع، ولا ينفصل عن همومه وقضاياه بحكم ضرورات الالتزام، لا يأسره الواقع الضيّق الذي تعارف عليه الناس، ولكنه ينطلق إلى فضاءات الخبرة والرؤية اللتين لا أوّل لهما ولا انتهاء.

إن الخصوصية الإسلامية التي هي وليدة الزمن والمكان، والتي ينســـجها لقاء العقيدة بالإنسان في هذه البيئة (المحلية) أو تلك، لا تتعارض مطلقاً مع التوجه (العالمي) أو الإنســـاني، خارج قيود الزمن والمكان والبيئة والتاريخ. لأن الإسلام –في الوقت نفسه– توجه أبدي صوب الإنســـان في كل زمـــان ومكان، ولأن من أهدافه أن يصنع عالماً ســـعيداً لبني آدم جميعاً، وأن يعينهم على تجـــاوز متاعبهم وآلامهم، وإزالة الجدران والمتاريس التي تقف في دروبهم صوب أهدافهم المشروعة.

بل إن الإســـلام، برؤيته الكونية، واستشـــرافه بعيد الآفاق، ونزوعه الشمولي، وتوازن الثنائيات في نسيجه بين ما هو منظور وغيـــبي، وطبيعي وميتافيزيقي، ومادي وروحي، وثابت ومتغير، ومحدود ومطلق، وفانٍ وخالد.. الإســـلام بهـــذا كله أقدر –إذا تهيأت له الأدوات الفنية المتمرســـة والخبرة العميقة– على إبداع أدب عالمي يهمّ الإنســـان في إطار المعمـــورة، ويمكن أن يفرض ترجمته إلى كل لغة حية.

ولكن –وكما تقـــول القاعدة النقدية المعروفة– إن العمل الأدبي الكبير، لا يحقق عالميته وانتشـــاره إلا من خلال أصالته وخصوصيتـــه، أي من خلال تحركه مـــن الخاص المحدّد إلى العـــام المفتوح، كـــي لا يغدو عملاً تجريدياً، وكي يكســـب ملامحـــه وتكوينه الحيوي، ونســـيجه ذا اللحم والدم والملامح المتفردة.

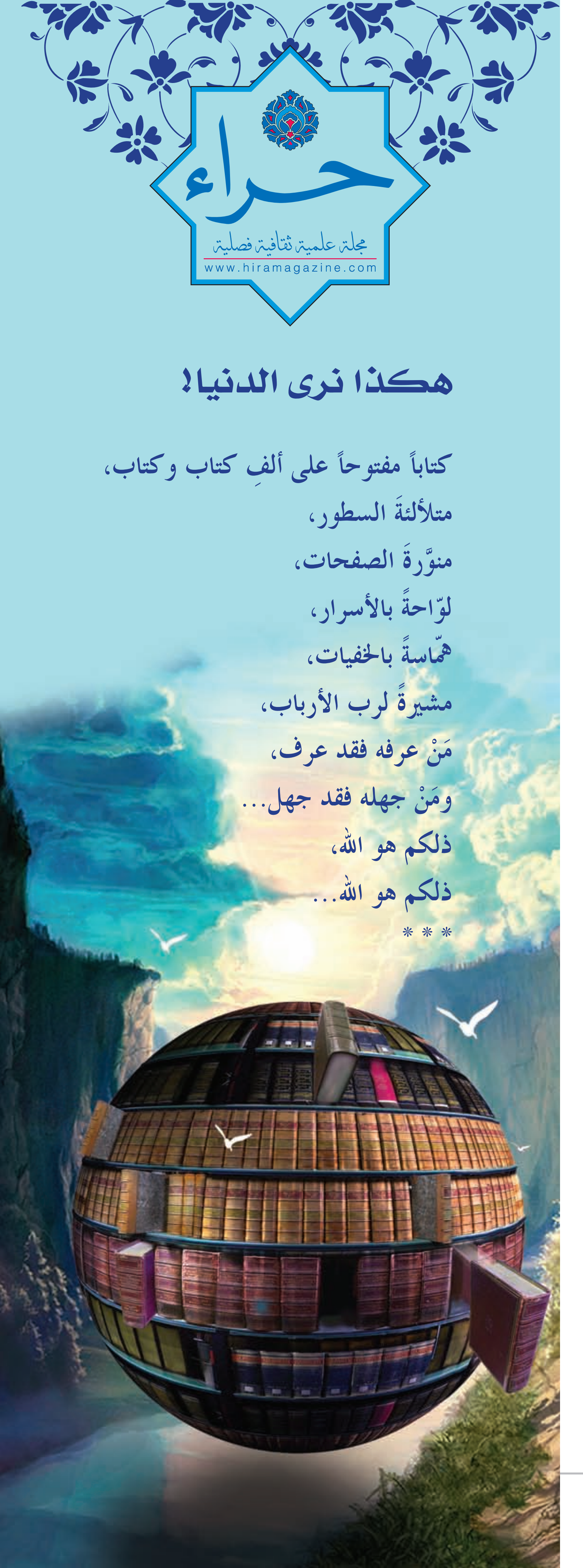
وظائف الأدب الإسلامي

إن إحدى وظائف الأدب الإسلامي، بل وظيفته الأم، إلى جانب وظائفه السياسية والاجتماعية والنفسية والتاريخية والتربوية، هي الوظيفة العقدية التي تســـتهدف إيصال الخطاب الإســـلامي إلى المتلقّـــي بأكبر قدر من التأثير. إن الأديب ها هنا يحمل ســـلاح الكلمة لكـــي يقف في صف الدعاة واحداً مـــن أكثرهم قدرة على الفاعلية والكسب والامتداد. إنه يقوم بتوصيل رؤية الإسلام للكون والحياة والعالم والإنســـان، لا بمفاهيـــم تجريدية وأفكار صارمة ومقولات قاطعة كالســـكين، ولكن بالصورة المشخصة والتجربة المعيشـــة والخبرة التي يجري الدم في خلاياها وشرايينها فيبعث فيها الحياة.

إنه مـــن خلال التجربـــة الحيوية، وبموازاة مقـــولات الفقه واستنباطاته، يقول للناس هذا حلال وهذا حرام، وبواسطتها يخرج بهـــم من الطرق الملتوية إلى الصراط. إن معطيات هذا الدين –بما تنطوي عليه من مضامين فكرية– يمكن أن تركَب إلى الناس ألف مركـــب في كل زمان ومكان. ولكن ليس كمركب الفن المؤثر الجميل، من يقدر على فتح منافذ الوجدان البشري لكي تستقبل هبة اليقين الذي جاء به الإســـلام. هنالك حيث يتوحد الإنسان وينســـجم ويتوافق مع الموجودات على مدى الكون الفســـيح.

إن الأديب وهو يمارس عملية تشـــكيل الكلمات وصياغتها وهندســـتها للتعبير عن هذا الجانب أو ذاك من الحياة الإسلامية، ولتوصيل هـــذا المضمون الفكري أو ذاك من عقيدة الإســـلام للآخرين، إنما يمـــارس وظيفة من أخطـــر وظائف الأدب على الإطـــلاق. ولنتذكر كيف أن التواصل لن يتحقق بصيغته الفاعلة المرجـــوة إن لم يضـــم جناحيه على طرفي الإبـــداع: "الجمال" و"التأثير"، وإلا وقع في مستنقع المباشرة والتقرير.

كل الوظائف الأخرى المشار إليها يمكن أن تندرج تحت ظل هذه الوظيفة الكبرى ما دام أنها روافد تتجمع لكي تصب في نهاية المطاف في بحر العقيدة الواســـع العميق. ولن يكون من المحتوم على الأديب المسلم أن يقصر همومه على عرض القيم والمضامين الفكرية في معطياته، بل يكفي أن يهدم عقائد الوضّاعين ومذاهبهم وتصوّراتهم.. يكفي أن يكشـــف عما تتضمنه من كذب وزيف والتواء.. يكفي أن يحكي عن مردودها على الإنسان ألماً وتعاسة ونكدا وشقاء، لكي ما يلبث أن يتضح للناس أن البديل الوحيد.. البديل الحق، هو الإسلام وحده.



الأدب والتصور الإسلامي

إن وظيفة الأدب العقدية تمتد وتتسع لكي تنفسح على مدى رؤية الإسلام وتصوره الشامل للكون والعالم والإنسان. وهو تصور يتفرد بامتداده وعمقه وانتشاره فيما يمنح الأديبَ ألف فرصة وفرصة للتعبير المؤثر الجميل. إنه تصور يسعى للتحقق بأكبر قدر من الوفاق والتناغم بين الإنسان والوجود، وإنشاء إيقاع موحد بين سائر الأطراف التي يحتويها الكون ويضم جناحيه عليها. إن الأديب يجد نفسه هنا في ساحته الحقيقية المترعة المشحونة، وهي -بحق- أكثر الساحات قرباً من حقيقة الإبداع الجمالي، وبعداً -في الوقت نفسه- عن المباشرة والتسطح والتقرير.

إن قلم الأديب المسلم يمكن أن يتحدث عن كل شيء، ويكتب عن كل تجربة، ويعبر عن كل صغيرة أو كبيرة في مجرى الحسّ والشعور والوجدان، أو في شبكة العلاقات الاجتماعية والبشرية، أو في ساحة الطبيعة والعالم، أو في منظومة الأفكار عبر مضامينها كافة. إن تحديد أو وضع قائمة بالموضوعات التي يمكن أن يتحدث عنها الأدب الإسلامي أو يلامسها ويعيشها أمرٌ في غاية الصعوبة، بل إنه لموقف مفتعل يسعى إلى قولبة التجربة الكبيرة في إطارات تضيق عليها الخناق.

في ضوء ذلك كله تبدو "أسلمة الأدب" أو "التأصيل الإسلامي للأدب" التزامَ مبدع بمنظومة الخبرات والقيم الفكرية للإسلام، وتقديمها للناس بأشد وتائر المَقدِرة على التأثير، يوازيها سعي مرسوم لهدم القيم الوضعية المضادة في الفكر والأدب والحياة.

ولكن بما أن الإبداع الأدبي في أجناسه كافة ينطوي على بعد آخر يلتحم بالبعد الفكري، ويمكنه من التأثير في المتلقي، وذلك هو منظومة القيم الجمالية، فإن التأصيل الإسلامي للأدب يتحتّم ألاّ يغفل عن إيلاء الاهتمام البالغ بهذا الجانب، وأن يبحث ما وسعه الجهد عن بدائل إسلامية للقيم الفنية الشائعة في الآداب العالمية، رغم إقرارنا -مسبقاً- بأن معظم هذه القيم يحمل وجهاً محايداً يمكن توظيفه في هذا المذهب أو ذاك.

ومع المضمون الفكري والقيم الجمالية، لا بد للأدب الإسلامي -وهو يسعى إلى المزيد من التأصيل- من أن يشكل منهجه المتميز في النقد والدراسة الأدبية، أسوة بما فعلته وتفعله جل المذاهب والمدارس النقدية في العالم.■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.



إذا كنت ثاويا في قعر الجسد، وعالقا بوحل الشهوات،
فمتى إذن تخضرُّ سفوح قلبك وبوشي الزمرد تكتسي روحك؟!

* * *



أنا جلد عبد الله

أ.د. عرفان يلماز*

عزيزي عبد الله... منذ أشهر وأعضاؤك في بدنك تتكلم عن مدى إعجاز خلقها ومدى أهميتها الحياتية، وتشرح أنفسها لك. وكانت الغاية الأساسية من شرحها الإشارة إلى القدرة اللانهائية للخالق الكريم وإلى حكمته. واليوم ما رأيك أن تفتح نافذة من بدنك إلى العالم الخارجي فتصغي إليّ، أي إلى جلدك؟

إن جميع مسؤوليات حدود بدنك مع العالم الخارجي قد ألقيت على كاهلي، لأنني أنا الذي أحس بجميع التغيرات الخارجية من حرارة وبرودة ورطوبة وضغط، وبالأنواع العديدة من الإشعاعات وبجميع التأثيرات الكيمياوية والميكانيكية الخادشة، وأقوم بتنبيه الأعضاء الداخلية للقيام بما يجب تجاه هذه الظروف والشروط المتغيرة. لذا يعدّني الجميع عضواً وظيفته الإحساس ويصنفونني كآخر عضو من الحواس الخمس.

من زاوية الجمال

والحقيقة أن لي وظائف عديدة أخرى غير وظيفة الإحساس. ولو قمت بتعدادها كلها لما وسعت صفحات المجلة لمثل هذا الشرح والتعداد. فلو نظرت إليّ من زاوية الجمال لعرفت مدى جمالي. وإذا أردت فهم ما أعنيه فادخل مع أحد طلاب كلية الطب إلى مختبر التشريح، وحاول النظر إلى جثة لم تُقطع بعد بل نُزع عنها جلدها فقط، وأمعن النظر فيها إن استطعت وتحملت. فلولا وجودي أنا لَفَقَد الجسد الذي يُعد آية في الفن كلَّ جماله ومنظره البديع، ولأصبح منظره قبيحاً ومرعباً، ولزال جمال كل عضو من الأعضاء التي شرحتْ نفسها لك عن مدى فائدتها وضرورتها وجمالها.

لقد خلقني الله تعالى لباساً ملائماً يغطي كلَّ مناطق جسدك. وأنا أغطي أخمص قدميك وكذلك راحة يديك بمادة متقرنة لأسهل عليك المشي واستعمال الآلات اليدوية العديدة. وفي مناطق المفاصل أكون قابلاً للطي مثل آلة أكورديون أو مثل المنفاخ لكي أسهل حركة أصابعك ويديك ورجليك.

أنا والشَّعر

ولكي أحافظ على رأسك من الشمس والبرد تغيرتْ بعض خلاياي هناك وتحولتْ إلى شعر وأُعطيتْ قابليةَ النمو على الدوام. ومن أجل المحافظة على عينيك وُهبت لك الرموشُ والحواجب مع تحديد لمدى طولهما، ولولا ذلك لاضطررت كل يوم إلى قصهما لكي تستطيع الرؤية. وحتى في مداخل ثقوب أنفك وأذنيك شعرات خاصة وضعت لالتقاط الأتربة ولمنع دخول الحشرات وما شابهها. وقد تقول في نفسك: وهل هذا شيء مهم؟ كل ما في الأمر بضع شعرات. ماذا لو كانت موجودة أو غير موجودة، إذ لا أهمية حيوية لها!؟ أجل، ولكن الحياة ليست البقاء "حيًّا" فقط،

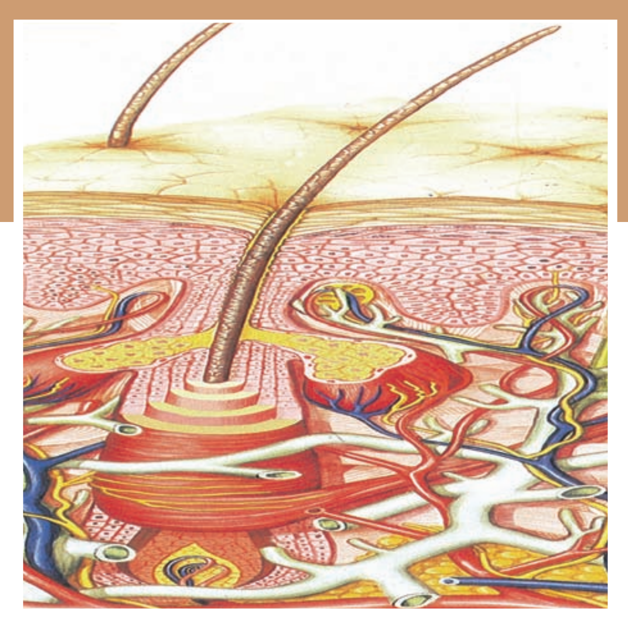
بل لها أبعاد جمالية أيضاً. وأنت تستطيع فهم هذا عندما تنظر إلى شخص تساقطت أهدابه وحواجبه. أجل، عندما خلق الله الإنسان خلقه جميلاً وأعطى أهمية لكل شعرة وجعل لها دوراً في الجمال. والله تعالى عندما يخلق شيئاً يخلقه بحكمة من جميع الجوانب.

نبذة عن مهامي الحيوية

إنني أحافظ على جسدك من عدة نواحٍ: إن أراد إنسان اعتيادي أن يلف جسده كما ألفه أنا فهو يحتاج إلى ١,٨م²-٢م² من الغطاء. ومهمتي الحيوية هي قيامي بمنع سوائل الجسم من الانسياب إلى الخارج وضياعها، لأن كثافة سوائل الجسم الداخلية والأملاح المعدنية الموجودة فيها مهمة جداً للجسم، ولولاي لما استطاعت كليتاك وحدهما تنظيم كثافة هذه السوائل. لذا فإن الشخص الذي أصابت الحروقُ ٢/٣ من جلده بشكل عميق يموت بسبب ضياع سوائل جسده. وعلى الرغم من محاولات المراكز المختصة بعلاج الحروق وباستخدام أجهزة حساسة جداً للمحافظة على كثافة سوائل الجسم وعدم فقدها، إلا أنها لا تكون ناجحة في هذا الأمر عند الحروق الكبيرة.

ومن مهامي محافظة الجسم من دخول الفيروسات والبكتريات والفطريات وكل ما يضر به ويسبب له الأمراض. وأنت تعلم أنه إن دخلت شوكة صغيرة في يدك دخلت الجراثيم إليها والتهبت، فإن تعرضتُ إلى جروح في مساحة كبيرة تعرضتَ أنت إلى التهابات شديدة، لأنني عندما لا أكون موجوداً في منطقة دخلتْ إلى جسمك الملايين من الأحياء المجهرية ومرضتَ.

لقد خُلق جسمك حساساً للحر وللبرد، ويجب أن تكون حرارة جسمك في الداخل ٣٦,٧ م°. ويجب ألا تتغير هذه الدرجة بسبب تغير الحرارة في الخارج، بل يجب أن تبقى ثابتة. فإن تعرضتَ للبرد مدة طويلة وانخفضتْ حرارة جسمك قليلاً تمرض العديد من أعضائك الداخلية وفي مقدمتها الرئتان والمعدة والكليتان، حيث لا تكون قادرة على إيفاء وظائفها على الوجه الصحيح. فإن استمرت درجة حرارة جسمك بالانخفاض توفيتَ. وبالمقابل إن تعرضتَ لحرارة شديدة مدة طويلة وبدأتْ حرارة



جسمك بالارتفاع بدأت عوارض خطرة بالظهور في جهازك العصبي الحساس وفي مقدمته دماغك، ثم يبدأ الخلل بالظهور في أعضائك الأخرى وفي مقدمتها القلب، والموت هو المصير المحتوم أيضاً في هذه الحالة. هذا مع العلم أن الناس يعيشون في جميع المناطق في الأرض بدءاً من الصحارى وانتهاء إلى منطقة القطبين، ومع ذلك تضبط حرارة أجسامهم وتثبت في حوالي ٣٧ م°. وأنا من أهم أجزاء المنظومة التي تقوم بحفظ توازن حرارة جسم الإنسان في هذه الدرجة. ومع أن مركز السيطرة في هذه المنظومة هو الدماغ، إلا أنه يقوم بعملية التوازن هذه نتيجة للتنبيهات الصادرة مني.

بنيتي وتركيبتي العجيبة

وقبل أن أشرح لك مهامي المهمة أود أن أحدثك قليلاً عن بنيتي التي تبدو من الخارج وكأنها بُنية بسيطة؛ والحقيقة أنني لست كما تظن مثل غطاء بسيط من النايلون. فأنا أولاً عضو حيّ مرن ينمو ويتغذى، ويمكن تصليحه وتعميره، وبينما يطرح الأجزاء الميتة منه يعوضها بخلايا جديدة. وهو على اتصال بالعالم الخارجي. وإذا تركنا التفصيل أقول بأنني أبدو كطبقتين، والجزء الخارجي الذي تراه هو طبقة "البشرة" أو الأدمة، التي تكوّن الخلايا المتقرنةُ الميتة التي أتمت أعمارها جزأها العلوي. وهذه الخلايا الميتة تتساقط كل يوم وهي التي تتساقط كوسخ عندما تستحم. كما تتخلص آنذاك من العديد من البكتريا والفطريات وغيرها من الطفيليات الملتصقة بي من الخارج. والقسم الأسفل من الطبقة العلوية من الجلد تملك خلايا لها قابلية كبيرة على الانقسام وعلى النمو وهي

"الطبقة النامية"، وهي تنشـئ على الدوام خلايا جديدة وتدفعها إلى الأعلى. وهذه الخلايا عند تكونها تكون أسـطوانية الشكل وكلما ارتفعت إلى فوق أصبح شكلها مكعباً ثم تصبح مسطحة. ونظراً لتكون المواد المتقرنة في داخلها فهي تبدأ بالتصلب شـيئاً فشـيئاً وتفقد حياتها. وعندما تصل إلى فـوق تكون قد ماتت تماماً. وقسـم منها لا تتساقط بل تلتحم مع بعضها مكونة طبقة متقرنة مثل الأظافر. وتظهر كذلك في الأماكن المتعرضة للتآكل وذلـك للحفاظ عليها. الحياة البيولوجية لهذه الطبقة حياة طويلة إلى درجة محيرة. فبعد موت الإنسـان لا تموت طبقتي هذه يومين أوثلاثة أيام بل تستمر في الانقسام. لذا فإن مات شخص كان قد حلق لحيتـه وقص أظافره قبل الموت نرى أنه في حالة تأخر دفنه عدة أيام قد نبتت لحيته وطالت أظافره. وهذا يعود إلى استمرار نشاط الطبقة السفلى من الجلد.

تحت طبقة البشـرة أو الأدمة توجد طبقة أكثرسمكا. في هذه الطبقـة توجد العديد من آثار الصنعة والفن التي تكون وسـيلة لحيويتي ولوني ولقوة التوتر عندي. وصلب هذه الطبقة مؤلف من نوع من البروتين يدعى "الكولاجين" يعمل على تكوين نسـيج ليفـي رابط. وكلما تقدم الإنسـان في العمر بدأت هذه الطبقة بالجفاف والتيبس وبفقد بروتين الكولاجين. وكلما قلت الألياف قل توتري وظهرت التجاعيد عليّ. وفي داخل الطبقة السـفلى من الجلد توجد الغدد العرقية بشـكل خطـوط ملتفة، وجذورُ الشـعر، والغددُ الدهنية التي تغذي الشعر وتعطيه بريقه ولمعانه، و"الخلايا الصبغية" التي تعطي لون بشـرتي، وكذلك العضلات الموجودة حول جذور الشـعر والتي تسـتطيع إيقاف الشعر أو إعادته إلى حالته الطبيعية، وشـعيرات الدم التي تغذيني، وأخيراً توجد أنـواع عديدة من الخلايا العصبية التي تسـتقبل المنبهات كالألم والضغط.

دور الخلايا الصبغية في لوني

الأوصاف التي تطلقونها على بعضكم مثل: هذا أسمر أو أشقر أو أبيض تنبع من الخلايا الصبغية الموجودة في الطبقة السـفلى مني والقريبة والمجاورة لطبقة البشـرة. ولهذه الخلايا النجمية الشكل أذرع وامتدادات وتقـوم بتحريك هذه الامتدادات ببطء؛ فتارة تطولها وأخرى تقصرها وذلك حسـب شـدة الضوء. وكذلك تسـتطيع تجميع الجزيئات الصبغية (القتامين) في مركز الخلية أو توزيعهـا في داخلها. وهكذا يبدو لوني قاتمـاً أو فاتحاً، وذلك حسب المواسم وحسب طول أو قصر ساعات النهار. أي حسب شدة أشعة الشـمس وطول المدة التي أتعرض فيها لهذه الأشعة. فكما تعلم فإن الذين يعيشون في شمالي أوروبا وفي أمريكا الشمالية يكونون شقراً وتكون بشرتهم بيضاء أكثر من الذين يعيشون في الجنوب، لأنهم يتعرضون لأشـعة الشـمس مدة أقل، فالجو هنا مغيم في أكثر الأحيان، بينما لأشعة الشمس دور مهم في تركيب فيتامين «D». فمادة الهيدروكلسترول التي تدخل إلى جسمك مع الغذاء لا تتحول إلى فيتامين «D» في جسـدك إلا بأشعة الشمس. وهذا الفيتامين مهم جداً لعظامك ولتكوين الكالسيوم، ويذوب في الدهن. وبغياب أشـعة الشمس لا يمكن صنع هذا الفيتامين. علما بأن نقص هذا الفيتامين يؤدي إلى العديد من أمراض العظام، وإلى تشوه في الهيكل العظمي.

ولكن أشعة الشمس سيف ذو حدين، لأن نقصها يؤدي إلى المرض، كما أن زيادتها أيضاً تؤدي إلى أمراض من أهمها سرطان الجلـد وبعض أمراض العين. ولا شـك أن ربنا الذي ملأ جميع أرجاء الأرض بالناس أعطى بحكمته وعلمه اللانهائيين للخلايا التي تحمل مادة القتامين خاصية بحيث يستطيع جميع الناس الاستفادة من أشعة الشمس في جميع أرجاء الأرض سواء أ كانوا يتعرضون لأشعة الشمس كثيراً أم قليلاً. ففي البلدان التي يقل فيها التعرض للشـمس تقوم الخلايا الصبغية بصنع مادة القتامين بكمية قليلة. وتنتشـر هذه المادة داخل الخلية أو تنـزل هذه الخلايا إلى عمق الجلد، لذا تبدو بشرتي بيضاء. وهكذا تنفذ من خلالي كمية أكبر من أشعة الشمس لاستعمالها في صنع فيتامين «D». أما في الأماكن المشمسة فيتعرض الناس إلى الأشعة فوق البنفسجية بشكل كثيف وإلى إشعاعات أخرى. لذا فهناك خطر تعرض خلاياي لطفرات ضارة ولخطر الإصابة بالسرطان.

لـذا يتم تركيب كمية أكبر من مادة القتامين في جلود الذين يعيشـون في هذه المناطق المشمسـة وتتجمع في مركز الخلية،

ولهذا السبب تبدو بشرتي قاتمة أو سمراء. ويتم امتصاص الكمية الزائدة من أشعة الشمس من قبل التركيب الخاص للمادة الملونة والخضاب الموجودة في الخلايا الصبغية لخلايا البشرة. وهكذا تتم الحيلولة دون إصابة الخلايا الأخرى الحساسة بالسرطان. فهل أدركت الآن الحكمة من خلق الخلايا الصبغية عندي؟

لكي لا تزداد الحرارة الداخلية للجسم في الأجواء الحارة تتوسع شرايين الدماء الآتية إليّ فأتزود بكمية كبيرة من الدماء. وأقوم بنقل الماء الموجود في الدم إلى الخارج عن طريق غددي العرقية. وينتشر هذا العرق الحار فوقي ويتبخر، وبذلك يتم نقل كمية كبيرة من الحرارة إلى الخارج، وهكذا لا ترتفع حرارة الجسم. كما يتم مع إفراز العرق طرد بعض الفضلات النتروجينية، وهذا يريح كلْيتيك. وعندما يكون الجو بارداً تقل عملية التعرق وتضيق شرايين الدماء الآتية إليّ فيقل الدم الوارد إليّ، إذ يتوجه إلى الأعضاء الداخلية الحيوية لكي لا تبرد. وتتقلص عضلات الشعر عندي فتقف ويزداد سمك الغطاء الشعري، كأنني غطيت ببطانية. فإن قلّت حرارة الجسم أكثر قامت الخلايا المنبهة عندي بتنبيه العضلات الموجودة تحتي فترتجف هذه العضلات مولدة الحرارة. وهذا هو السبب في الارتجاف عند الشعور بالبرد. وقد يخطر على بالك أن النساء مظلومات في هذا الصدد، لأنهن لا يملكن شعراً على أجسادهن كالرجال. كلا، أبداً، لأن أجسادهن تقوم بخزن مقدار كبير من الدهن في طبقتي التحتية. وهذه الطبقة الدهنية المخزونة تحت الجلد لدى النساء تقوم من جهة بحفظهن من البرد، ومن جهة أخرى تعمل كمخزن غذاء احتياطي للمرأة عندما تقوم بإرضاع طفلها. كما تقوم بحفظ عضلات المرأة وعظامها من الضربات أو الصدمات الخارجية أكثر من الرجل، فتقوم هذه الطبقة الدهنية بوظيفة العزل الحراري ووظيفة امتصاص الصدمات.

علاقتي بالأمراض الداخلية

النظرة التي تقول بأنني مرآة الجسد نظرة محقة نوعاً ما. لأنني بسبب كوني معروضاً أمام العين فإن الأمراض التي تصيبني تبدو أماراتها واضحة، وأعد أول عضو يتمتع بهذه الميزة. ومظاهر الخلل التي تبدو عندي تكون عادة إشارة إلى خلل في بعض عمليات الأيض في الجسم، وإشارة إلى حدوث أمراض خبيثة، أو أمراض تتعلق بالغدد في الجسم. فمثلاً إن كان الكبد يتعرض للتسمم من قبل مادة سامة ظهرت لطخ حمراء في اليد. كما أن الحالة النفسية والروحية تؤثر عليّ. والعكس صحيح أيضاً، فهناك أمراض خاصة تصيبني وهي تؤثر على أعضاء الجسم الأخرى.

لقد ذكرت في البداية أنني أملك قابلية كبيرة على ترميم نفسي. فأنا أستطيع بإذن الله ترميم وإصلاح الحروق والجروح التي تحدث عندي في الظروف الطبيعية. ولكن إن كان الجرح عميقاً ونفذ إلى طبقتي السفلى بقي له أثر طفيف. وعند الإصابة بمرض السكري تقل قابليتي على الترميم والتجديد مع الأسف، فلا أستطيع معالجة الجرح بسرعة. وفي هذه الحالة عليك الاعتناء بي وبنظافتي وبعدم إصابتي بأي التهاب.

لا أريد في الختام أن أحدثك كثيراً عن الأمراض التي تصيبني مثل أمراض الحساسية والحكة ومرض تناثر الجلد والالتهابات وعن مظاهرها وعلاماتها، ولكني أكتفي هنا بالقول بأن بعض هذه الأمراض وراثية، ويحدث بعضها بسبب نقص في المناعة وبعضها بسبب البكتريات أو الفطريات. وأنا أستطيع أن أعد لك مائة من أنواع الأمراض التي تصيبني، ولكني لا أريد أن أقلقك أو أن أسبب لك الوساوس. فكما ترى فإن معظم الناس يعيشون بصحة جيدة على الرغم من كل شيء. فالله تعالى قد خلق آلية المناعة والدفاع.

لقد أردت أن أشرح لك مدى الدقة والحكمة التي خلقني الله بها. والحقيقة أنك عندما تعيش حسب ما يرضاه الله لك صانك من العديد من الأمراض. وحتى إن مرضت –كنوع من الامتحان– فستتحمل المرض. وعندما تُشفى ستحمد الله أكثر. وإذا كنت واثقاً بأنك لن تفقد شهيتك ولن يضيق صدرك فانظر إلى صور مرضى الجلد في أي كتاب يتحدث عن هذه الأمراض، وعندها ستحمد الله أكثر وتدرك مدى قيمة نعمة الصحة التي تتمتع بها.■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



فجِّر -أيها الإنسان- منابع العقل يأتك العلم واثبًا، وفجِّر منابع البصيرة تأتك المعرفة متواثبة. فكلّ عقل كبير فهو للبصيرة مدين، وعقل بلا بصيرة لا يزكو غرسه ولا يتسع فهمه. فإن التقيا على صعيد الإنسان، حصل المطلوب، وبان كل ظاهر ومحجوب.

***



إحياء الأخلاق
في الممارسة السلوكية عند الأستاذ النورسي

د. سعاد الناصر*

لا تنبع قيمة الاشتغال بموضوع الأخلاق من كونها تحتل رؤية مركزية في المنظومة الإسلامية فقط، ولكن ولربما بدرجة أعمقَ لأنها مجال خصب لتقليب النظر وانتهاج منهجيات متعددة في التناول والتحليل، وهي مناسبة لإبراز المفارقات المهولة بين رؤية القرآن والسنة وبين مآلاتِ تمثُّل الأخلاق والاهتداء بهديها في واقع المسلمين. وإذ إنه من العسير أن يتم تناول موضوعِ الأخلاق في شموليته وتعدد منهجياته خلال مقال مختصر في الزمان والأهداف والأفكار فلا بأس أن يصار إلى منطق الأولويات فيُشرعَ في إبراز الرؤية الفلسفية للأخلاق عند الأستاذ النورسي ومدى إسهامه في تنزيلها على الواقع والممارسة السلوكية وجعلها بنيانا مرصوصا يتيح إمكانات التحليل والمقارنة.

مصادر الأخلاق عند النورسي

لقد حاولت تتبعَ مواردِ حديثِ النورسي عن الأخلاق في العديد من رسائله، فلاحظت اســتقراءً أن نظريته الأخلاقيةَ تقوم على مصدرين أساسيين:

١- القرآن الكريم: باعتبار أن القرآن الكريم الحقيقةُ المطلقة والمركزية عند المســلمين التي تحتوي رسالةَ الله المتميزةَ بدلالات قيمتها الثابتة والدائمة، مــن مرتكزاتها منظومةٌ أخلاقية متكاملة تعقد الصلة بين الإنســان وخالقه، وبينه وبين الكون من حوله ابتداء من ذاته إلى مجتمعه إلى أخيه الإنسان أينما كان إلى الطبيعة من حوله يلخصها النورســي في قوله بأنها "نظام الأخلاق الذي يطبع صورةَ الروح الإنسانية بماهيتها، ويسلك بها مدارجَ التربية والمجاهدة لاكتساب معناها الكوني"، أي إن الأخلاق نظام ونسق كلي تقوم عليه تصرفات الإنسان وعلاقاته في هذا الكون.

٢- الســنة النبوية: باعتبارها القدوةَ الحســنة أو التطبيق العملي لكل الأخلاق الإنسانية المتضمنة في القرآن الكريم بحيث يمثل ﷺ واقعا حيا وســلوكا طبيعيا يــزاوج بين القول والفعل. يقول النورسي: "إن أعظم معجزة للرسول الكريم ﷺ بعد القرآن الكريم هو ذاتــه المباركة، أي ما اجتمع فيــه ﷺ من الأخلاق الســامية والخصال الفاضلة. وقد اتفق الأعداء والأولياء على أنه أعلى الناس قدراً وأعظمهم محلاً وأكملهم محاسن وفضلا".

ولعله من الطبيعي أن يُعتمد هذان المصدران من قبل النورسي، لكن خصوصيةَ النورســي هنا لا تنحصر في الاستشهاد بنصوص القرآن والســنة، وإنما يتجاوز ذلــك إلى جعل هذين المصدرين حاكمين في قراءةِ مختلِف القيم الأخلاقية وخلفياتها الفلسفية عند الغــرب وغيره. فمصدرية القرآن والســنة في النظرية الأخلاقية النورسية مصدريةٌ حاكمة وليست مصدرية شاهدة. وهي بذلك تنفي أن تكون القيمُ الأخلاقية شــخصيةَ المنشأ، وإنما مصدرها الله تعالى، لأنه تعالى لم يخلق الإنســان ويلقِ به في محيط الأوامر والنواهي، وإنما غرس فيه اســتعدادا فطريا لاســتقبالها وتوجيهِ تصريفها خيرا أو شرا، وزوده بقوى مختلفة ليؤدي وظيفة القصد من خلقه. يقول مشــبها له بالبذرة: "فقــد أُودعتْ في ماهيته أجهــزةٌ مهمة من لدن القدرة الإلهية ومنــح برامجَ دقيقةً وثمينة من لدن القدر الإلهي، فإذا أخطأ هذا الإنســانُ التقديرَ والاختيار وصرف أجهزته المعنوية تحت ثرى الحياة الدنيا وفي عالم الأرض الضيق المحدود إلى هوى النفس فســوف يتعفن ويتفسخ كتلك البذرة المتعفنة. (...) أما إذا ربى الإنسان بذرة استعداده وسقاها بماء الإســلام وغذاها بضياء الإيمان تحت تراب العبودية موجها أجهزتَها المعنوية نحو غاياتها الحقيقية بامتثال الأوامر القرآنية، فلا بد أنها ستنتشــق عن أوراق وبراعمَ وأغصان تمتد فروعها وتتفتح أزاهيرُها".

ونتيجــةً لحاكمية هذيــن المصدرين في النظريــة الأخلاقية النورسية صار النورسي لا يتحدث عن خلق ولا يفسر خلقا ولا يربط خلقا بخلق ولا يجعل خلقا سببا لخلق ولا نتيجةً له إلا وهو يســتحضر نصوصَ القرآن والحديث مما يعني أن هذه النصوصَ لا تقدم له شــهادة عن دلالات الأخلاق فحســب وإنما تعطيه منهجَ التعامل مع الأخلاق وفلسفتِها وطبيعتها ودورِها في ضبط السلوك وتوجيهه.

من هنا كان حديثُه عن الأخلاق طويلا ومتشــعبا يستوعب الرســائلَ كلَّها، فكانت كأنها ترجمة معبرة لقول رسول الله ﷺ: "إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق" (رواه البيهقي).

الأصول الأخلاقية عند النورسي

ويبدو أن أحســن وســيلةٍ إلى تمثل مفاهيمه الأخلاقيةِ وطبيعتها ودورها هو أن تسلكَ في صِنافةٍ تعتمد الأصول الأخلاقية الكبرى وتُلحــق بها فروع الأخلاقِ في منهجيــة تعتمد الأصل والفرع، والســبب والنتيجة، والمقدمة والغاية. وهكذا تمدنا هذه المنهجية بأن الأصول الأخلاقية عند النورسي هي:

العدالة: وهي أصل يضم الأخــلاقَ الآتية: الصدق والوفاء والصبر والصفح والشجاعة والتسامح والتساند.

المحبة: وهي أصــل أخلاقي يضم الأخــلاق الآتية: الأمل والإخاء والتواضع والإخلاص والحلم والنصح.

أولا: العدل (باعتباره خلقا سلوكيا أصليا ينتج عنه مجموعةٌ من الأخلاق السلوكية الفرعية): يعتبر النورسي أن مقاصد القرآن الأساســيةَ وعناصرَه الأصليةَ المبثوثة في كل جهاته أربعةٌ: إثباتُ الصانع الواحد والنبوةُ والحشر الجسماني والعدل. والناظم لرسائل النور هو روح الإسلام التي تشع بدلالات العدل واحتشاد معانيه في الآيات القرآنيــة والأحاديث النبوية، من أجل إصلاح الذات الإنسانية ومراجعة نســقها القِيمي الذي يتحكم في أفعالها وفي الفعل الاجتماعي بشــكل عام. لذا كان الأمر بالعدل ومقاومةِ

الظلم صريحا لا يحتاج إلى تأويل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾(النحل:٩٠). فالعدل مفهوم شامل يعبر عن روح الإسلام ومقاصده ويستغرق جميعَ مناحي الحياة الفردية والاجتماعية بكل مساربها وتشعباتها ويشملُ الكونَ والإنسان وسائرَ الكائنات ويصبغها بصبغة الحق. من هنا كان مفهوم العدالة عند النورسي يقتضي المساواةَ في الحقوق والواجبات في حقِّ الخالق والخلق. ويفرق بين المفهوم القرآني للعدالة ومساواتِها للناس وحمايتها لكل فرد من أفراد المجتمعات الإنسانية وبين من تمكنت الأنانية من نفسه، فيقول: "العدالة القرآنية المحضة لا تهُدر دم بريء ولا تزهق حياته حتى لو كان في ذلك حياةُ البشرية جمعاء (...) ولكن الذي تمكن فيه الحرص والأنانية يصبح إنسانا يريد القضاء على كل شيء يقف دون تحقيق حرصه حتى تدميرَ العالم والجنس البشري إن استطاع".

فالذي لا يتخلق بقيم العدل إنسان تتحكم فيه الأنانية والظلم والعداء، ويصبح لزاما عليه إصلاحُ نفسه، لأنه "منبعُ الشرور الأخلاقية، وبالتالي وجب عليه إصلاحُ أنانيته التي هي مصدرٌ لمصائبَ ومعاصيَ كثيرةٍ أشنعها وأكثرها سوءًا المصيبة الدينية والتي تتمثل في الكفر سببِ كل الشرور".

وأي أخلاق أو تنظيم أو جمال في المجتمع فهو يرجع بالأساس إلى خلق العدالة وروحها المستمدة من تجليات الأسماء الحسنى: "وقد ثبت ببراهين دامغةٍ في أغلب أجزاء رسائل النور أن فعل التنظيم والنظام الذي هو تجل من تجليات الحكم والحكيم، وأن فعل الوزن والميزان الذي هو من تجليات العدل والعادل، وأن فعل التزيين والإحسان الذي هو تجل من تجليات اسم الكريم والجميل، وأن فعل التربية والإنعام الذي هو تجل من تجليات اسم الرب الرحيم، كل فعل من هذه الأفعال هو فعلٌ واحد وحقيقة واحدة تشاهد بوضوح في آفاق الكون كلِّه".

وإذا لم نستطع الإحاطة بكل الأخلاق المتفرعة عن العدل التي ركز عليها النورسي يمكن أن نتوقف عند خلق الصدق، يقول: "الصدق هو أسّ أساس الإسلام وواسطة العقد في سجاياه الرفيعة ومزاج مشاعره العلوية. فعلينا أن نحيي الصدق الذي هو حجر الزاوية في حياتنا الاجتماعية في نفوسنا ونداوي به أمراضنا المعنوية".

ثانيا: المحبة (باعتبارها أصلا أخلاقيا ثانيا يتفرع عنه مجموعة الأخلاق): يقول النورسي مخاطبا نفسَ الإنسان: "يا نفسيَ المحبةَ لنفسها، ويا رفيقتي العاشقَة للدنيا! اعلمي أن المحبة سببُ وجود هذه الكائنات والرابطةُ لأجزائها وأنها نور الأكوان وحياتها. ولما كان الإنسان أجمع ثمرةٍ من ثمرات هذا الكون فقد أُدرجت في قلبه الذي هو نواة تلك الثمرة محبةٌ قادرة على الاستحواذ على الكائنات كلها".

الإنسان إذا ربى بذرة استعداده وسقاها بماء الإسلام، وغذاها بضياء الإيمان، تحت تراب العبودية، موجها أجهزتهَا المعنوية نحو غاياتها الحقيقية بامتثال الأوامر القرآنية، فلا بد أنها ستنشق عن أوراق وبراعمَ وأغصان تمتد فروعها وتتفتح أزاهيرُها.

إن النورسي ينظر إلى خُلق المحبة بصفته قيمةً محورية تكون أساسا لاستقرار الإنسان النفسي وارتقائه الروحي، كما تكون نواةً تنبت مجموعةً من القيم الأخلاقية الأخرى كالإخلاص والإخاء والحلم وغيرها، ويستهدفه بوصفه أسلوبا ناجعا من أساليب التربية والسلوك الذي يصلح النفسَ ويسعى بها إلى إصلاح المجتمع وتغليب الخير فيه. ولعل أحسنَ الثمرات التي تنضج في قلب محب ونفس تواقة إلى المحبة خُلقُ الإخلاص؛ فالإنسان الذي تشع المحبة الحقيقية منه يتجرد من أنانيته ومن غروره وإعجابه بنفسه ومن ريائه ومن حسده وغيرته ومن مختلف الأمراض التي تسري منه إلى المجتمع فتنخره وتفتك به. وقد حدد النورسي تسعة عناصر يستطيع بها الإنسان أن يظفَر بالإخلاص، وهي تدور حول غايتين اثنتين: العدالة والمحبة.

فالأصل في العلاقات الاجتماعية والإنسانية أن تكونَ علاقاتٍ قائمةً على المحبة والمودة والتآلف حتى ولو تباينت الأفكار والمواقف، بل إن هذا التباين هو الذي يؤكد ضرورة الالتزام بهذه القيم والمبادئ، يقول: "لا تجد في القرآن آيةً إلا توحي بمحبة

شديدة لله. وفيه حث كبير على الفضيلة خلا تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقي، وفيه دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم وفيه مقت للعجب والغضب، وفيه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر، وفيه حض على الإيفاء بالعهود حتى مع الكافرين وتحريض على خفض الجناح والتواضع وعلى استغفار الناس لمن يسيئون إليهم لا لعنهم. ويكفي جميعُ تلك الأقوال الجامعة المملوءة حكمة ورشداً لإثبات صفاءِ قواعد الأخلاق في القرآن. إنه أبصر كلِّ شيء".

أركان النظرية الأخلاقية النورسية

يستوحي النورسي نظريته من المنظومة الأخلاقية المبثوثة في القرآن الكريم المتميزة بمخاطبتها للإنسان في أبعاده كلها والمطبقة بنوع من الكمال والجمال في شخصية محمد ﷺ بوصفه مربيا ومرشدا ومثلا وقدوة. من هنا كان خطاب النورسي يتضمن الكلياتِ الأخلاقيةَ ويتميز بشموليته وواقعيته وكليته، فيتجه إلى كل إنسان ابتداء من نفسه وتقديمها قدوة. فالأخلاق عنده ليست مثالية أو نظرية، وإنما هي أخلاق عملية، أي تنبني على العمل وتنتج عملا تجعل المسلم يعيش متوازنا، ينسجم إيمانه واقتناعه وتصوره مع ممارساته السلوكية والعملية. لذا تنقسم الأخلاق عنده إلى أخلاق قلبية كالمحبة، وأخلاق سلوكية كالعدل تصب كل منهما في الأخرى. فالأخلاق القلبية تطهر النفس وترتقي بها، فلا يصدر عنها إلا أفعالٌ منضبطة بالأخلاق السلوكية باعتبارها الضابطة. ويرى أن أس أساس الفساد والظلم كلمة واحدة: "إن شبعتُ فلا عليّ أن يموت غيري من الجوع"، وأن منبع الأخلاق الرذيلة كلمة واحدة أيضا: "اكتسب أنت لآكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا"، وهي دلالات سارية في المجتمع الإنساني تدفع إلى الحقد والحسد والصراع.

ولعل التحديداتِ التاليةَ تكشف عن أركان النظرية الأخلاقية عند النورسي:

الأخلاق بين الذاتية والإلزامية: إن "ممارسة الأخلاق قد تتبع أحد طريقين: إما طريق الإلزام الذي هو عبارة عن جملة من الأوامر والنواهي التي تُفرض من الخارج على إرادة الإنسان، وإما عن طريق الاعتبار الذي هو عبارة عن جملة من المعاني والقيم التي يستنبطها الإنسان تلقائيا مما يشهده من أفعال ويتلقاه من أقوال". وقد وثّق القرآن الصلة بين التوق الذاتي للتخلق والاستجابة للخطاب الإلهي من خلال الإتيان بالأوامر والنواهي في سياق المحبة وكسب رضا الله عز وجل، وذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(البقرة:١٩٥)، وقوله: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران:٧٦)، وهذا يكشف أن المنظومة الأخلاقية الإسلامية ليست سيفا مصلتا على الرقاب وضعت لإلزام الخلق وإرهابهم، وإنما من أجل جعلها سماتٍ أساسيةً في شخصية المسلم ومقوما لسلوكياته ومحفزا لها. وقد كان النورسي مستوعبا العلاقة القائمة بين حقيقة الإيمان والتخلق. فالمسلم لا يأتي الأخلاق ملزما أو مكرها عليها لأنه لا خيار لديه، وإنما لأن نفسه متشبعةٌ بها، فتصدر عنه في كل سلوك يسلكه أو عمل يقوم به. يقول: "إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خَلق النظام والوحدة الاجتماعية وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. إنه يسعى إلى الأخذ بيد المستضعفين ويوصي بالبر ويأمر بالرحمة. وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي ونظم العقود والمواريث، وفي ميدان الأسرة حدد سلوك كلِّ فرد تُجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس..." فهذه ممارسات خلقية وليست مجرد قوانينَ ملزمة.

الأخلاق بين الفردية والكونية: يشترك جميع البشر في الفطرة، يقول تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾(الروم:٣٠). فالإنسان بفطرته يميز بين ما هو خير وما هو شر، من هنا يمكن اعتبار الأخلاقِ كونيةً. يقول النورسي: "إذا كانت الأخلاق فطرة فطر عليها الإنسان فإن دور الدين يتمثل في تثبيت هذه الفطرةِ وتكميلها وتهذيبها". والبناء الأخلاقي للإنسان يتطلب الحرية الفردية والتي هي حرية القرار. والمسلم يمارس حريته الفردية من خلال عبوديته الخالصة لله عز وجل، ويتحمل مسؤولية وجوده الإنساني، ويسعى إلى آفاق الكون من خلال ارتباطه الخلقي به؛ يقول النورسي: "إن لكل أحد علاقات بالمحبة والشفقة مع أقاربه ثم مع أفراد عشيرته ثم مع أفراد ملته ثم مع أفراد نوعه ثم مع أبناء جنسه ثم مع أجزاء الكائنات، بحيث يمكن أن يتألم بمصائبهم ويتلذذ بسعادتهم وإن لم يشعر". وهي رؤية كونية ترفع الإنسان بمعراج الخُلق ليرتبط بعلاقات المحبة والشفقة مع جميع الكائنات في هذا الكون الفسيح. فتمتد أخلاقه بذلك لتسع الكون كلَّه.

الأخلاق بين العمومية والنســـبية: وتطبيق الأخلاق عمليا مسألة نسبية، قد يختلف تطبيقها من شخص إلى آخر ومن موقف إلى آخر. يقول: "إن الفضائل والأخلاق وكذا الحسن والخير أغلبها أمور نســـبية (...) فمثلا الشجاعة والكرم في الرجل تدفعانه إلى النخوة والتعاون، بينما تسوقان المرأة إلى النشوز والوقاحة وخرق حقوق الزوج. ومثلا إن عزة النفس التي يشـــعر بها الضعيف تجاه القوي لو كانت في القـــوي لكانت تكبرا، وكذا التواضع الذي يشـــعر به القوي تجاه الضعيف لو كان في الضعيف لكان تذللا. ومثـــلا إن جدية ولي الأمر في مقامه وقار بينما لينه ذلة، كما أن جديته في بيته دليل على التكبر ولينه دليل على التواضع". ويقول أيضا: "عليك أن تصـــدُق في كل ما تتكلمه، ولكن ليس صوابا أن تقول كل صدق، فإذا ما أدى الصدق أحيانا إلى ضرر فينبغي السكوت، أما الكذب فلا يسمح به قطعا".

نقد النورسي للازدواجية الأخلاقية

يعتبر النورسي أن استناد الحضارة على الأساس المادي المصلحي انحرف بها عن القصد من الخلق وصادم توجه الفطرة الإنســـانية وجنح بها نحو الظلم والاســـتغلال. ولـــذا يقدم طبيعة الفرق بين تربية القرآن وتربية الفلســـفات الماديـــة. ولعل هذا النص –على طوله– يقدم الفرق بـــين النظرية الغربية والنظرية الإســـلامية: "حكمة الفلســـفة ترى القوة نقطة استناد في الحياة الاجتماعية، وتهدف المنفعة في كل شـــيء، وتتخذ الصراع دســـتورا للحياة، وتلتزم بالعنصرية والقومية والسلبية رابطة للجماعات. أما ثمراتها فهي إشباع رغبات الأهواء والميول النفسية التي من شأنها تأجيج جمـــوح النفس وإثارة الهـــوى. ومن المعلوم أن شـــأن القوة هو الاعتداء، وشـــأن المنفعة هو التزاحم إذ لا تفي لتغطية حاجات الجميع وتلبية رغباتهم، وشـــأن الصـــراع هو الجدال والنـــزاع، وشأن العنصرية هو الاعتداء إذ تكبر بابتلاع غيرها وتتوسع على حســـاب العناصر الأخرى. أما حكمة القرآن الكريم فهي تقبل الحق نقطة اســـتناد في الحياة الاجتماعيـــة بدلا من القوة، وتجعل رضا الله سبحانه ونيلَ الفضائل هو الغايةَ بدلا من المنفعة، وتتخذ دستور التعاون أساسا في الحياة بدلا من دستور الصراع، وتلتزم برابطـــة الدين والروح والوطن لربـــط فئات الجماعات بدلا من العنصرية والقومية والسلبية، وتجعل غاياتها الحد من تجاوز النفس الأمارة ودفع الروح إلى معالي الأمور وإشباع مشاعرها السامية لسَوق الإنســـان نحو الكمال والمثل الإنسانية. إن شأن الحق هو الاتفاق، وشـــأن الفضيلة هو التساند، وشأن دستور التعاون هو إغاثة كل الآخرين، وشـــأن الدين هو الأخوة والتكاتف، وشأن إلجام النفس وكبح جماحها هو إطلاق الروح وحثها نحو الكمال وسعادة الدارين".

يكشـــف لنا هذا النص المعطيات التالية: القوة مقابل الحق، العـــدل مقابل الظلـــم، المنفعة مقابل رضـــا الله، الصراع مقابل التعاون. وهـــذه الازدواجية طبعت الوجدان الفلســـفي المادي وحكمت عليه بالمنفعة الذاتية.

رسالة الأخلاق عند النورسي

إن النورسي يقدم بعدا جديدا لمفهوم رسالة الدين؛ ويتمثل ذلك بتأكيده أن رسالية الأخلاق معطى سلوكي قبل أن يكون قوليا، بل إنه يجعل من هذه الرســـالية الأخلاقيـــة محفزا ودافعا لدخول الناس إلى الإسلام. يقول: "لو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإســـلام وكمال حقائق الإيمان لدخـــل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجا".

إن حسن الخلق والتعامل الأخلاقي والحضاري مع الآخرين قد يحولهم من موقع العداوة والخصومة إلى موقع الولاء والانسجام. والشـــخصية المطلوبة التي تمثل الإسلام وقيم القرآن هي المتخلقة بأخلاق القرآن التي يمكن لها أن تعيد بناء حضارة إنسانية تتناغم فيها الأخلاق بين التصور والســـلوك. و"إن مقام الإنسان الراقي وتفوقه على ســـائر الأحيـــاء وامتيازه عليها إنما هو لســـجاياه السامية". ■

(*) جامعة عبد المالك السعدي، تطوان / المغرب

المصادر

(١) المثنوي العربي النوري، بديع الزمان سعيد النورسي.
(٢) الكلمات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(٣) الشعاعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(٤) الملاحق، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(٥) اللمعات ، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(٦) المكتوبات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(٧) صيقل الإســـلام، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(٨) سؤال الأخلاق، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي.
(٩) الخطبة الشامية، بديع الزمان سعيد النورسي.



منهج الاعتدال في الخطاب الإسلامي

أ.د. محمد توفيق رمضان البوطي*

إن الأمة اليوم بأشد الحاجة إلى قراءة تأمل لواقعها الأليم وإعادة النظر في طريقة طرح الخطاب الدعوي. لعل في ذلك ما يمكنها من النهوض والعودة إلى الموقع الصحيح الذي يجب أن تتبوأه.

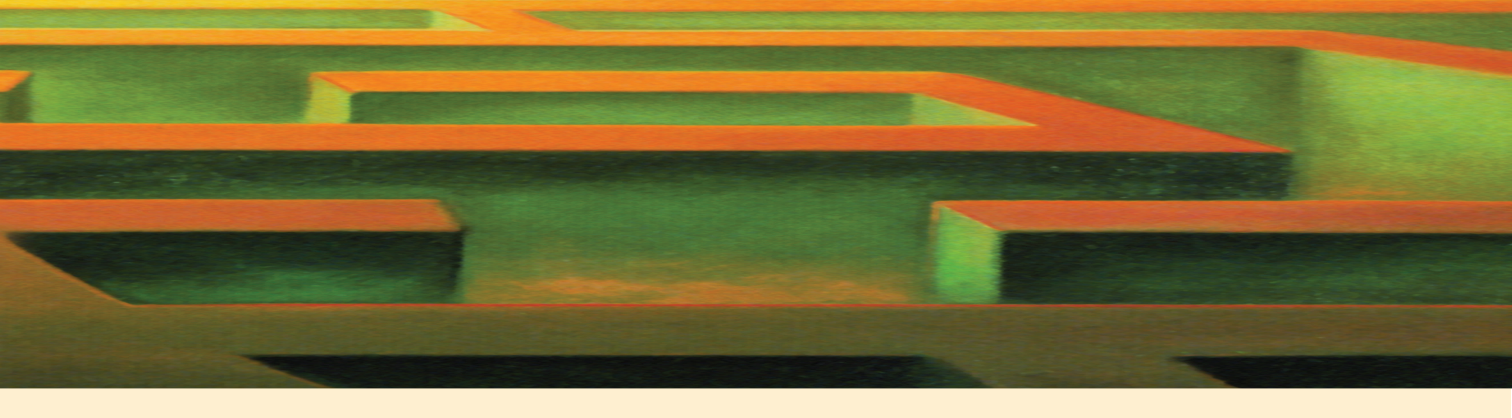
تؤثر في الخطاب الإسلامي عوامل عدة، من أهمها:

١-مضمون الخطاب. ٢-شخصية الداعية. ٣-المخاطَب. ٤-الظروف والأوضاع التي يصدر فيها الخطاب.

أما مضمون الخطاب فلن يختلف ولن يتبدل، لأنه دعوة إلى ما قد اكتمل وتمّ عقيدةً وتشريعاً وأخلاقاً. وهذا المضمون شكل من أشكال الثوابت الكونية، هو كنظام الشمس والقمر ونظام الخلية والتكاثر.

مقومات شخصية الداعية

أما الداعية أو الشخص الذي يوجه الخطاب، فهو في نظر الإسلام



مبلّغ يحمل الإرث النبوي العظيم ويتحمل مسؤولية نقل هذا الخطاب إلى العالم، بدءاً من العالم الضيق الذي يحيط به وانتهاءً عند أبعد فرد من هذه المعمورة.

حامل الخطاب إلى الآخرين يجب أن يحمله فكرة يترجمها خلقه وسلوكه وتصرفاته. فالإسلام لا تتقبل مبادئه أن ينشرها من لا يمثلها عقيدةً يؤمن بها وشريعةً ينضبط بأحكامها وأخلاقاً يصطبغ بها. ألم يقل ربنا جل شأنه: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة:٤٤). وفي الحديث الصحيح: "يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالَك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه" (رواه مسلم). والداعية المسلم يمكن أن يحمل خطابه إلى الآخرين بلسانه وقلمه، ولكن الأجدى والأقوى في نشر دعوته -مع لسانه وقلمه- أن ينشرها بسلوكه وأخلاقه، فلسان الحال أبلغ من لسان المقال.

وحامل الخطاب الدعوي يجب أن يكون مخلصاً لله في دعوته لا يبتغي بها غير رضوان الله تعالى، فالدعوة ليست مجرد عمل حركي ونشاط اجتماعي أو سياسي يجمع المرء من خلاله الأتباع والمعجبين بكلمته وأسلوبه؛ بل الدعوة عبادة يتقرب بها المرء إلى الله ويرجو بها منه القبول التزاماً بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(فصلت:٣٣)، وقوله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(النحل:١٢٥). إنه يرى نفسه مجرد خادم لدين الله، فإن لقيت دعوته استجابة فهو فضل الله تعالى أنار به قلوب المستجيبين، و"من تمام فضله عليك أن خلق فيك ونسب إليك" (ابن عطاء الله في الحكم). أما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(القصص:٥٦)؟ أمّا إن وجد إعراضاً وصداً فإن عليه أن يصبر كما صبر رسول الله ﷺ، ألم يقل رسول الله ﷺ: "إنما مثلي ومثل أمتي، كمثل رجل استوقد نارًا، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقتحمون فيها" (رواه مسلم)؟ ألم يرقّ قلب رسول الله ﷺ على الشاردين حتى قال له الله تعالى: ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾(فاطر:٨).؟

إن قلب الداعية يجب أن يكون نقياً عن مشاعر الغيظ والحقد أياً كان موقف المدعو. إن عليه أن يدعو ويرجو الله أن يهدي قومه ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾(الغاشية:٢١). فالله تعالى هو الذي سوف يتولى حسابه وعقابه، أما الداعية فإن واجبه أن يبلغ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ثم إن على الداعية أن يكون على دراية وعلم بما يدعو إليه، بحيث يستطيع أن يحسن عرض ما يدعو إليه وإبراز حقائقه مؤيدة بالحجة البينة والبرهان القوي. عليه أن يكون على علم بالعقيدة وبالأخلاق الفاضلة وبأحكام شريعته. ويجب أن يكون الداعية على جانب من الوعي والثقافة بحيث يعيش في واقع عصره ومستجداته ويدرك ما يحيط بدعوته من مشكلات ومكائد وشبهات.

ضرورة فهم شخصية المدعو

وأياً ما كان المدعو فإن على الداعية أن يفهم شخصية المدعو جيداً بصورة تساعده على حسن عرض دعوته عليه. فالمخاطب الذي توجه إليه الدعوة فهو أحد ثلاثة:

أ-مسلم مقصر: وإنه في الحقيقة أولى بدعوتنا اليوم. أجل، نحن أحوج إلى من يدعونا وينصحنا، فكلنا مقصر، وإن تفاوت التقصير بين مسلم وآخر. الدعوة إلى أن يقرأ كلٌ منّا ذاته وسلوكه وأخلاقه وحاله مع ربه، ثم يضع ذلك كله أمام ميزان حكم الله وكتابه. أن يدرك كلٌ منّا أنه مقصر وغافل عن حقيقة حاله. إن كلاً منّا متجه إلى أجله، وكلُّ ساعة تمضي تبعدنا عن مولدنا وتدنينا إلى آجالنا، إن علينا أن نتذكر أننا كما يقول الحسن البصري: "إنما نحن أيام وكلما مضى يوم نقص بعضنا، ويوشك



أن تنتهي أيامنا لنقف بين يدي الملك الديان". والله تعالى يقول: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾(الحاقة:١٨).

بــ–مسلم مخالف: أما المسلم المخالف فإن مخاطبته يجب أن تستند إلى الالتزام بأدب الحوار الذي أمرنا ربنا أن نلتزم به مع غير المسلم فضلاً عن المسلم الذي قد يختلف معنا في قليل أو في كثير. ألم يقل ربنا تبارك وتعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:١٢٥)؟ إذا كان ربنا سبحانه يقول لنا: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾(آل عمران:٦٤) فأجدر أن تكون الكلمة السواء القائمة بيننا وبين المسلم المخالف مرتكزاً للتلاقي، ومنطلقاً لقبول الحوار النابع عن احترام الرأي الآخر.

لقد جاء النص الشرعي في الكتاب والسنة سواء كان قطعي الثبوت أم ظنيه –وأكثر نصوص السنة ظنية الثبوت– على وجهين اثنين:

أ–منه ما كان قطعي الدلالة على معناه فكان نصاً لا يحتمل التأويل. ويمثل هذا النوع الجزءَ الأقلَّ من نصوص الشرع.

بــ–ومنه ما كان ظني الدلالة ظاهراً ولكنه يحتمل التأويل. وقد جاءت معظم نصوص الشريعة مجالاً للبحث والاجتهاد والتأويل، مما دفع بالمجتهدين من العلماء إلى شحذ الهمة وبذل الجهد في فهم دلالاتها. ولما كانت محتملة الدلالة فقد تباينت تأويلاتهم وفهومهم لها، وإذ كانت مرنة الدلالة فقد كان في تفسيرها بأكثر من معنى سعةٌ. وهذا الاختلاف والتباين يحمل في طياته تحريضاً لذوي الكفاءة والعلم لبذل الجهد في فهم النص، مما يجعل اختلافهم –وهم المتفقون– مظهر ثراء وغنى وحركة في الذهنية الفقهية تغني فقهنا الإسلامي.

وإننا اليوم لنشعر بمدى الحكمة الإلهية في ذلك، إذ صار فقهنا بهذا الثراء والتنوع مجالاً رحباً لاختيار ما ينسجم مع مستجدات العصر والنوازل. واجتماعاتُ المجامع الفقهية التي تمثل أطيافاً متعددة للمذاهب الإسلامية المختلفة والتي تتمخض في نهاية المطاف عن رؤية واحدة لحلول عملية تتآزر في وضعها مختلف المذاهب مظهرٌ لهذا الثراء والحيوية.

ولا بد من الإشارة إلى أن على فئات المسلمين أن تجعل من الحوار المخلص القائم على سعة الفهم وقبول الاختلاف الناجم عن ظنية الدلالة في مختلف النصوص اجتهادات توطد الروابط وتزيد في تعاون الأمة على حل قضاياها. إننا نعيش اليوم في مواجهة يجب أن تجمع ولا تفرق، وأن توحد لا أن تمزق.

جــ–غير مسلم: أما الفئات غير المسلمة، فإن علينا أن نتذكر أننا نتعامل في دعوتنا لهم مع "الإنسان" الآخر بكل ما تحمله كلمة "الإنسان" من خصائص ومعان. إنه يحمل "الفطرة" التي نحملها وإن غطيت بكثيرٍ من الشوائب. وينعم بـ"العقل" الذي ننعم به. والعقل هو ذلك الميزان الدقيق الذي يمكن الاحتكام إليه. إنه الحكم العدل عندما يكون حراً. إنه وحدة قياس لا تتباين أحكامها ما دام حراً وصحيحاً وما دامت المقدمات التي قدمت إليه صادقة. ولذلك نجده يبحث عن ذاته ويبحث في قصة الكون والحياة. وسوف يصل إلى الحقيقة في يوم من الأيام.

إن غير المسلم الذي نوجه دعوتنا إليه "إنسان" يحمل العواطف الإنسانية، وإن أُصيبت بشيء من التبلد والتشوه، إلا أنه يحمل تلك العواطف التي يمكن أن تستيقظ وتنتبه يوماً ما. يمكن أن تستيقظ فيه مشاعر الرحمة ومعاني الحياء والمحبة للخالق المنعم. يمكن أن تحرض فيه معاني الحب والحنان حتى وإن رانت عليها كثافات المادية. إن هذه المشاعر موجودة ولكنها في حالة رقاد، ويمكن أن تستيقظ لتغدو ساحة استقبال أسمى المؤثرات الإيجابية، بل إنها عندئذ تتعطش لغذائها الذي تحتاج إليه.

إن أساس العلاقة بيننا وبين غير المسلم هو كون كل منّا إنسانا كرمه الله بالإنسانية قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠)، وأنه المستخلف في الأرض والذي عهد الله إليه بأن يحقق عدالة الله في هذه الأرض، وأن يكون مظهراً لحكمته ورحمته وعدالته من خلال تطبيق شريعته. أجل، كلٌ منّا "إنسان" يتمتع بمقومات الاختيار من عقلٍ وفهم وإرادة تمنحه القدرة على

اتخاذ "القرار"، ولذلك فإنه مسؤول بين يدي الله تعالى.

فقد أقام كتاب الله تعالى لتعاملنا مع غير المسلم أُسساً تتمثل فيما يلي:

- الاحتكام دائماً إلى موازين العقل والعلم في كل ما نقدمه إلى الآخرين أو ما يقدمه الآخرون إلينا.

وقد ألزمنا كتاب ربنا سبحانه بعدم اتباع ما لا يقوم على أساس علمي فقال: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾(الإسراء:٣٦). وأداة العلم موجودة لدى الإنسان من خلال ما حباه ربه من حواس وعقل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(الإسراء: ٣٦). وحذرنا من العصبية والتمسك بالمواقف من غير دليل أو بينة، سواء كان ذلك على وجه التبعية للآباء والأجداد، فقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾(البقرة:١٧٠)، أم كان على وجه الانقياد وراء نزوة النفس واتباع الهوى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾(ص:٢٦). ويوضح كتاب الله تعالى أن الإيمان رؤية علمية فيقول: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(سبأ:٦)، ويطالب لكل دعوى بالبرهان ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة:١١١)، ويرفض تعطيل ملكات المعرفة والفهم ويعدّ ذلك هبوطاً عن مستوى الإنسانية ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(الأعراف:١٧٩).

- رسم المسلمون بناءً على ذلك منهجاً للوصول إلى الحقيقة، ألزموا أنفسهم به واحتكموا إليه في حوارهم مع الآخرين. فقالوا: "إذا كنت ناقلاً فالصحة، وإذا كنت مدعياً فالدليل"، ودليل الحكم المادي مادي يخضع للتجربة والمشاهدة. ودليل الحقيقة العقلية برهان عقلي. أما الغيبيات التي لا سبيل للعقل أن يستقل بمعرفتها ولا تخضع للدليل الحسي فإنه الخبر الصادق الذي دلت البراهين العقلية على صدقه.

- وقد أمرنا في الحوار أن نلتزم مبدأ ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:١٢٥)، ورسم معالم أدب الحوار الذي لا يلزم الآخر بأحكامنا واعتناق معتقداتنا، بل نطرح فكرتنا ملتزمين بحكم الدليل مفترضين ثبوت حكمنا أو بطلانه ليتيح للآخر أن يدلي برأيه ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ۞ قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(سبأ:٢٤-٢٥)؛ أثار الدعوى وأدلى بحكمه الذي يعتقده ثم أتاح مجال الحوار واضعاً أمام الآخر الفرصة لإثبات العكس وتقبله لما يثبته الدليل فقال: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾، ثم قطع الطريق بلطف على دعاوى واتهامات توجه إلينا، فأوضح أن كل نفس بما كسبت رهينة. ولكنه جاء بأسلوب فيه منتهى الرقة واللطف فقال: ﴿قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ أي مما تتهموننا به ﴿وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ و لم يقل عما تجرمون.

إن هذه الدعوة الهادئة اللطيفة والدافئة إلى الحوار بحثاً عن الحقيقة لا تحمل أي معنى من معاني القهر والإرغام، إنما هي إثارة للأذهان والعقول للبحث عن الحق. ويأتي التحذير بعد ذلك ليحمل العقل مسؤولية البحث، والتحذير من الحكم المجازف بعيداً عن حرية القرار العقلاني الفطري ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾(الكهف:٢٩). على أنه ليس من حقنا أن نكره الآخر على الإيمان إكراهاً ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:٢٥٦).

ومهمة الداعية في دعوته أن يذكر ويدعو، وهذا مما يجعلنا نميز بين أمرين:

١-دور الداعية في دعوته، وأنه ليس من حقه أن يكره الآخرين على اعتناقها.

٢-مسؤولية الإنسان عن البحث عن الحقيقة والتزامها.

وهذا بالتالي يلزم الداعية في خطابه بالمنهج الحكيم الذي عرضناه، من حيث افتراض أيّ من الطرفين صاحب الحق وعدم توجيه الحكم سلفاً ببطلان دعوى الآخر. إن محاورة الآخر بمنطق الحجة والبرهان انسجام مع احترام إنسانية الإنسان وارتقاء بالذات وبالآخر إلى السدة اللائقة بكل منهما.

أعود فأكرر القول بأن المسؤول عن إبراز صورة الدعوة والخطاب الإسلامي عند الآخرين إنما هم "نحن". فإن برزت

الصورة حسنة فإن ذلك لحسن عرضنا لها، وإن برزت الصورة مشوهة فإننا نحن المسؤولون عن تشويهها.

إن الجالية الإسلامية الموجودة في العالم الغربي أو في خارج العالم الإسلامي اليوم هي الصورة التي تترجم في نظر الآخرين حقيقة الإسلام في مختلف جوانب سلوكها وتصرفاتها. وإن الأضواء مسلطة عليهم قطعاً لعرض الإسلام من خلال أوضاعهم وتصرفاتهم.

والحق يقال: إن كثيراً من مشكلات العالم الإسلامي وأمراضه التي يعاني منها في بلاده تبرز في خارج العالم الإسلامي بصورة مجهرية وبألوان فاقعة. وإن من أخطر هذه المشكلات مشكلة التفرق والتشرذم والتي يعدّها الآخرون حجة مفحمة في تشويه ديننا والإساءة إلى مفاهيمه. بل لعلهم يثيرون أسباب الخلاف ليراقبوا ردود الفعل، ثم يسلطون الأضواء على ردود الفعل تلك، ليقولوا: هذا هو الإسلام!..

ومن أخطر هذه المشكلات جهل المسلمين بدينهم. وإذا كان عامة المسلمين جهلة بدينهم بصورة من صور الجهل فإن المسلمين في خارج العالم الإسلامي مشكلتهم هذه أكبر. إذ هم أفقر إلى وجود الحد الأدنى من المرجعية التي يمكن أن تصحح بعض أخطائهم. لذلك فإن الكثير من تصرفاتهم تعكس مدى الحاجة إلى معرفة حقائق الإسلام، وتبرز صورة سيئة جداً غريبة عن حقائق الإسلام ورحمته وعظمته.

أساليب الدعوة ومستجدات العصر

إن مستجدات العصر قد حملت إلينا أمرين متناقضين:

أحدهما سلبي: وهو ردود الفعل غير الصحيحة من قبل بعض الذين لم يتعرفوا على دينهم، وانطلقوا من ردود الفعل تجاه بعض المواقف السلبية نحو الإسلام عقيدةً وتشريعا وعبادة. فبدلاً من أن يمثلوا التربية الإيمانية التي وجهنا إليها نبينا ﷺ في أسلوب التعامل مع غير المسلمين والحوار معهم بالتي هي أحسن، وأن بعثة النبي ﷺ إنما كانت رحمة بالعاملين.. بدلاً من ذلك كله واجهوا الناس بالعنف والشدة والقسوة، والنبي ﷺ يقول: "بَشِّروا ولا تنفروا" (متفق عليه)، فمضى هؤلاء ينفرون ولا يبشرون. فحققوا بذلك هدف الحاقد الذي يصد عن الحق ويمنع انتشاره.

والآخر إيجابي، وهو يتمثل في أكثر من عنصر:

- الوعي العلمي لدى المجتمع الغربي المعاصر والذي جعله أكثر استعداداً لفهم حقائق الإسلام.
- الظمأ الروحي الذي يعاني منه الإنسان الغربي والذي لم يجد ما يطفئ ظمأه.
- سهولة الاطلاع على الإسلام من خلال كثرة أبناء الجالية الإسلامية في العالم الخارجي، ومن خلال وسائل الاتصال والثقافة والتواصل الثقافي بين الشعوب التي سهّلت إمكانية الحوار عن بعد، أو من خلال الملتقيات العلمية والثقافية التي تتم هنا أو هناك، والتي أتاحت الفرصة للتعرف بصورة من الصور على بعض معالم فكر الآخر ومفاهيمه.
- التردي الخطير الذي يعاني منه المجتمع المعاصر، ولا سيما في الغرب، حيث انهارت الأسرة وتفكك المجتمع وشاعت الأمراض النفسية والاجتماعية وأعيت أوضاعُهم الباحثين الاجتماعيين والمفكرين عن وضع حل نافع يعالج أمراضهم.

شروط نجاح الخطاب الإسلامي في الغرب

إن الخطاب الإسلامي يجب أن يحمل في طياته معاني الفكر الواضح بحقائقه الاعتقادية والمرتكز على أدلته العلمية، وأن يحمل المعنى الإنساني الذي يقدم للعالم كله العلاج الذي يداوي جراحه، ويحل مشكلاته الاجتماعية والنفسية والاضطرابَ الفكري الذي يجعله يشعر بنوع من الفصام في شخصيته والكآبة في نفسيته.

لقد قدم لنا الغرب الكثير من الخير والكثير من الشر. ولقد آن الأوان أن نخاطبه بأننا نملك أن نقدم له مقابل المعروف معروفاً لا غنى له عنه، وأننا نملك أن نقدم له مقابل الفكر فكراً واعياً وقلباً يقظاً.

ولكننا لن نستطيع أن نقدم إلى الغرب الصورة الواضحة القوية إلا بمقدار ما نترجمها في واقعنا وفي فكرنا وسلوكنا وعلاقاتنا وفي صلتنا مع ربنا سبحانه وتعالى.

فنحن بحاجة إلى الغرب، والغرب بحاجة إلينا، فلماذا لا نلتقي معه على الإصلاح؟

ونحن والغرب بحاجة إلى مراجعة ذواتنا بجرأة قبل أن نراجع الآخرين.■

(*) جامعة دمشق، كلية الشريعة / سوريا.





أنت عزائي إذا عَزّ العزاء..!

أديب إبراهيم الدباغ*

1

إذا الحبيب جفاني، وغاب عني وخلاّني، وإذا القريب سلاني، ورفيق الدَّرب للدرب رماني، وتولَّى عني وما وفَّاني، والشوق للأحباب أضناني، والتِّيهُ ناداني، وَقَفْرُ الغربةِ أضواني.. فأنت العزاء، والموئل والرجاء... حضورك دائم، وقربك ماثل، إليك ألتجي، وكَهفَ رحمتك أرتجي...

يا قِفار الليالي! يا سَرابات الزَّمن! يا مَتاهاتِ القلوب! إلى أينَ المسير..؟ تاه خَطوي، وكلَّتْ قدمي، وَجفّ دمعي، وَخبَت شمسي، وأظلمَ قَمَري، أجدَبتْ كأسي... قتلني العطش، ومصّني الظما...

فيا ساقي العطَاش... إليك أشكو، وبك أستجير، وإليك أتضرَّع... ألا قطرةٌ من رَحَماتك تَبُلُّ شفاهَ قلبي... ألاَ لَفْتَةٌ من لَفَتَات لطفكَ تُؤْنِسُ دَربي وَتَقود خَطوي؟!

يَا حُزنيَ الخلاّق، يَا خياليَ الدَّفاق، يا مُضنَى يا مشتاق... متى تكسر الأطواق، وتَحطِمُ نِيرَ الأعناق... ومن جحيم الزمن تَفِرُّ وتطير، وسرمدياً تصير... وإلى رَبّك تجري، وإليه تأوي... ومِنهُ تدنو، وله تُسَبّحُ وتشدو؟!

أخذوني، غلُّوني، وبحبال الزمان قيدوني، وبأوتاد الأرض أوثقوني... غيّبوني، وبرقعاً أسودَ ألبسوني، وعن السماء حجبوني، ثم قالوا وأعادوا: أنت يا ابن الأرض للأرض خدين، ويا سليل التُّرب في التُّرب سجين... فانتفضتُ وَصَرختُ وتَمَرَّدت وتضرَّعت: يا قريباً غير بعيد، ويا حاضراً غير غائب، يا ذا القوة التي لا تُرَام، ويا ذا العرش المجيد، يا فعّالاً لِمَا يريد! حَطِّم سجني، اكسر قيدي... حرِّرني، شُدّ أزري... أنت عزائي، وكُلُّ أملي وَرجائي...!

يا ندى الروح، يا بَليلَ القلب، يا طَلَّ الفؤاد، يا ساكن أعماقي، يا حاضرَ وجداني، يا سَارِياً في الضمير، يا جارياً مع الأنفاس، يا محمودَ لساني، وخفق قلبي وجَنَاني، ونزيلَ كياني... كيف يخاف قلبٌ أنتَ نزيله، وكيف يزيغ ضميرٌ أنت سَكينُهُ، وكيف يَفرُقُ امرؤٌ أنت أمينه؟!

لتتساقط السماءُ كِسَفاً، ولتحتدم الأكوان، ولتنهر المجرات، ولتنطفئ الشموس والأقمار، وليحترق الكون حتى الرماد، وليعُمَّ الفناء، ولتعصف عواصف الهباء، وليحصد الموتُ كلّ حيّ... فلَن ترتعد فرائصي، لأني معك... فأنت الوجود كلّ الوجود، والحضور كلّ الحضور، والحياة كل الحياة، والبقاء كل البقاء... فأنت كفائي، سَتري وغِطائي..!

عـلـى باب الغيب توالت طرقاتي... بيمين العقل مرّة ويسار القلب مرّات، وبالنّفس والآفاق كرّةً وكرّات... فلا البابُ انفرَج، ولا الفجرُ انبلج... غير أن صوتاً من وراء الباب آتٍ: أيها الطارق هـذا الطرق لا يجدي... عُدْ إلى القرآن فالقــرآن مفتاحُ، للقلب والأكوان والغيـب فتّاحُ... فتعلّم كيف ترقى، ومن رحيق الغيب بالقرآن تُسقى وتُروى... فإذ ذاك تغدو للغيب علامةً وشارة، وصوتاً وبشارة... فإذا الغيب شهود، وحضورٌ لا يحُور، قوامه الإنسان، وآيهُ الروح والوجدان...

مُدنفٌ أنا هلاّ عُدتَنِي، ظاميءٌ أنا هلاّ سقيتني، خضيبُ الروح، دامي القلب... هلاّ واسيتني وضَمّدتني؟!

في بحار الوَجدِ يجري زورقي، شراعُهُ ذوبُ حنين، ومجدافهُ صوتُ أنين... يا خارقَ السفين! أيها العبد الصالح! يا يدَ الأقدار ويمينَ رب العالمين! لماذا أتيتَ، وزورقي خَرقْتَ، وفي لُجَجِ الأشواقِ أَغْرَقتَني، ثم مَضَيتَ وخَلّيتني؟! هلاّ أنقذتني، وإلى شاطئ الأحباب أوصلتني، وبأسبابهم وصَلتني؟! أم تُرَاكَ قصدتني، ولهذا الغرقِ أردتني.

سادتي! دقّت ساعتي، وجاءت صحوتي، ومن نوم غفلتي استيقظت أرتجي، لحاقاً بكرام أمتي... أولئك السبّاقون، على المكارم يتنافسون، ويتواثبون... "كُن أبا ذرّ" فكان... صدق حدسك يا رسول الله... ها هو يحث الخطى وحيداً، يسابق الأرض، طيّاً يطويها... جمرات الحصى أكلت نعليه، وأحرقت قدميه... حتى إذا انكشفت الغَبرَة، وبدَت الضحوةُ إذا بأبي ذرٍّ قائماً بين يديك... "رحمك الله أبا ذرّ... في أرض فلاة، وحيداً تُقبض، ووحيداً تُقبر، ووحيداً تُبعثُ وتُحشر". رحم الله المتفردين... إذ هم على أبواب الجنة ملوكاً قائمين... يهنئون ويُسلّمون، وعلى أيدي المؤمنين يشدُّون..!

أيها الضياء الحنون! يا نوراً على نور! خذني من جُبِّ غُربتي، وأطلِقني من أصفاد مِحنتي، قُدْني إلى حيث إخوتي، فقد أضاءت روحي، وأشرق قلبي، فكيف أطيق المكوث، ساكناً كالموت، صامتاً كالقبر، بارداً كالثلج، وبين أضلاعي نارٌ وقيدُها القلب، وفي الروح ضَرامٌ ما خبا أُجاجه، وما انطفأت جمراتهُ؟!

يا صحابي... يا مصابيح النُور... يا قناديل الهدى... عندكم لقيت بُغيتي... وحظيتُ بطلبتي... وللخدمة أوقفتُ همّتي... فما أنا بمزكّيكم على الله تعالى... غير أني أحسب أنّكم من القوم الذين لا يشقى جليسهم.■

(*) كاتب وأديب عراقي.



يا ورد ابتسم..!

لسعادتي –يا ورد– ابتسم،
ناغِ –يا ورد– آمال قلبي،
لامِسْ شغاف روحي بعطر أنفاسك،
وموجُ عطرك في أذني يقول:
على رِسْلك يا صديق،
فأنتَ واصل للحبيب،
ومن معين محبته ستشرب،
وفي أفياء وصاله ستتفيأ...

* * *

أعراس الوصول

جمال أمين*

القبر معبرُ راحلٍ   من عمره لغد بديل
من طينه الكاسي إلىً   عشّ الثرى يفِد النزيل
في برزخ يقف الزما   ن ببابه عجزا ذليل
هو فاصل الغيب البهيـ   ـم وخاتم السعي الطويل
هو آخر المضمار في   خَبب البرايا والذميل
هو صبحنا ينشق عن   فجرٍ إلهيّ كحيل
هو عرسنا للناسجيـ   ـن صلاحهم خلْداً جزيل
هو بؤسنا للحاطبيـ   ـن شقاءهم تعساً وبيل
هو بسمة هو دمعة   خطان في ترب مهيل
والقبر هو خلاص دنـ   ـيانا من الظلم الثقيل
هو بسمة المستضعفيـ   ـن تحيط بالبغي النّكول
في ليلنا المسفوح يسـ   ـكر من شقانا والذبول
هو كِلْمة الصدق المؤ   مَّل في تخاليط تهول
يقدَ المنار من الثرى   صوب الشعيلة للضليل
هو –ظاهرا– زمن الفظيـ   ـعة يرتدي البصر الكليل
مزقا وتقطيعا لأجـ   ـساد وأوصال تزول
فتًّا ودكًّا للجما   جم قد غدت ذَرّاً ذلول
محوا لأزمان الهنا   ء بعالم خرب أكول
هو –باطنا– زمن الوصو   ل إلى الهناءة والحلول
زمن المجادة والعزا   زة والمباءة للقفول

زمن اخضرار الأفق يو   رق في الجنان وفي السهول
زمن الشروق من الأفو   ل يزف أعراس الوصول
والقبر فزعة باطش   نسجت على قرع الطبول
كتبت على لوح الثرى   وخطابها يضني العقول
فشتيتها سطر على   طرس الوجود بلا مثيل
وجواره سطر الحيا   ة معانقا مثل الخليل
نهران من أزل إلى   أبد على ثبج السيول
يتساوقان وفي ضفا   ف الغيب لقيا للمسيل
ووراء دولاب الوجو   د أصابع خلف السدول
في قبضة القيوم تنـ   ـداح العوالم للرحيل
نشوى تسير بطاعة   سكرى ترقّصها الشمول
حب يعرّش في المسا   لك والممالك لا يدول
فاقبس من الحب العظيـ   ـم شفاعة تذكي الفتيل
فالحب قبس من جوى الـ   ـأكوان والفيض الأثيل
والحب كشف للمسيـ   ـر وللمصير إلى الجليل
والحب لحن توافق   في معزف الكون الجميل
والحب نفي للنفا   يات الدخيلة والوحول
فاكرع من الكأس الرويـ   ـة والتفع فرحا أصيل
طيرا يجاوب جذبه الـ   ـعلوي نحو المستحيل

(*) أديب وشاعر مغربي.





رَكِّز على انتباهك!

د. حسن أيدنلي*

الانتباه هو قدرة التوجه نحو حادثة أو أمر، ثم تركيز الطاقة الذهنية حوله. وإن توجيه أذهاننا إلى شيء أو إلى حادثة وتركيز انتباهنا عليه يساعد على تنظيم العديد من الفعاليات الحيوية، وهو وظيفة من وظائف أدمغتنا. إن الانتباه هو تكثيف لطاقتنا الذهنية، وهو يساعدنا على فهم الأمور وإدراكها. وبتعبير آخر فإن الطاقة الذهنية لشخص مّا تتمركز وتتكثف على البؤرة التي جلبت انتباهه. والإنسان إنما يتعلم الأمور والحوادث التي يركز طاقته الذهنية عليها ويستطيع التفكير فيها. واللحاء الجبهي (Frontal Cortex) الموجود في القسم الأمامي من الدماغ يقوم بدور فعال في عملية الانتباه. وقابلية الانتباه تعد من النعم المهمة المهداة لنا والتي نحتاج إليها في كل أمر من أمور معاشنا وحياتنا. ومهما اختلفت مهننا أو أعمارنا فالانتباه ضروري للجميع.

في المرحلة الجنينية فإن سماع الجنين للأصوات الآتية إليه من الخارج نتيجة لنعمة السمع ونعمة الانتباه. ومع الولادة وبتوجيه الانتباه نحو العالم الخارجي تتطور هذه القابلية الفطرية. وبواسطة الحواس الخمس يستطيع الإنسان بشكل إرادي أو آلي تكثيف انتباهه نحو شيء أو أمر من الأمور.

والانتباه ضـــروري في تنظيم الحياة اليوميـــة وتحقيق التعلم وتنظيم العلاقات بين الأفراد وأداء المهام والمســؤوليات وتعقب القراءة والاستماع وفهم التعليمات والتركيز على التفاصيل.

الانتباه في الحياة اليومية

لنفـــرض هنيهة بأن مدة تركيزنـــا وانتباهنا أصبحت قصيرة. في هذه الحالة لا نســـتطيع أن نكون مثمرين ومنتجين في العديد من الســـاحات في حياتنا اليومية، وبالأخـــص عندما نقرأ أو نكتب أو نســـتمع أو نعمل. ويصعُب علينا آنذاك أداء وظائفنا بشكل وافٍ وكامل؛ فلا نستطيع متابعة كلام شخص نستمع إليه على الرغم من تركيز انتباهنا على كلامه. وعندما نشـــكو من ضعف الانتباه نقع في أخطاء بسيطة ونعجز عن رؤية التفاصيل. وقد لا نرى المانع الموجود أمامنا فنتعثر، وقد نسقط على الأرض، ونجد صعوبة في الذهاب إلى المدرســـة أو في القراءة أو في أداء وظائفنا الروتينية.

وما نطلق عليـــه تعبير "تكثيف الانتبـــاه" أو "التركيز" فهو قابليتنا في تعميق انتباهنا. وهو مهم وضروري في تأملنا للأشـــياء وللحـــوادث وإدراكنا أيّ موضـــوع وفي تفكرنا بكتاب الكون وقراءتنا له بشـــكل أفضـــل، كما يغنينا عن تلقـــي التحذيرات والتنبيهات. والقرآن الكريم يدعو الإنســـان بشـــكل متكرر إلى التفكر والتأمـــل، تأمُّلِ هذا التناغم المدهـــش في الكون وتأمل تجليات أسماء الله الحســـنى فيه. فتركيز الفكر والتأمل يلعب دوراً مهماً في تكامل الإيمان.

لو كنا نسمع جميع الأصوات وننتبه لها لسمعنا أو رأينا أشياء مزعجة كثيرة. فمحدودية السماع وعدم سماعنا الأصوات خارج هذه الحدود وســـيلة مهمة لراحة الإنسان، كما أن عدم تشتت انتباهنا في كل صوت نسمعه من النعم الكبيرة المهداة لنا. ولولا هذا لكان أقلُّ صوت نســـمعه أثناء العمل كافياً لتشتيت انتباهنا وقطع تركيزنا عن عملنا. وكذلك الأمر بالنسبة للرؤية. فلو كنا نبصر كل جسم يقع في ساحة رؤيتنا عندما نعمل لتشتت انتباهنا وقلت إنتاجية عملنا. إذن فمن النعم الكبيرة المهداة لنا أن انتباهنا لا يتشتت نتيجة كل التنبيهات الواردة إلينا من الخارج.

إن تركيز انتباهنا بشـــكل كافٍ يســـاعدنا على فهم أفضل وعلى اتخاذ قرار أحســـن وفي زيادة إنتاجنا في حياتنا اليومية. إن خزن ما يقال لنا في الذاكرة وفهم الموضوع الذي نعمل عليه فهماً جيداً وتذكرنا له فيما بعد متعلق بمدى تركيز انتباهنا آنذاك على ذلك الموضوع. وفي لحظات تعرضنا لأي خطر لا نرى ولا نسمع أي شيء خارج أنفســـنا وخارج الخطر الذي تعرضنا له، وهذا يشير إلى أن الإنســـان يستطيع التركيز على شيء إن أراد ذلك.

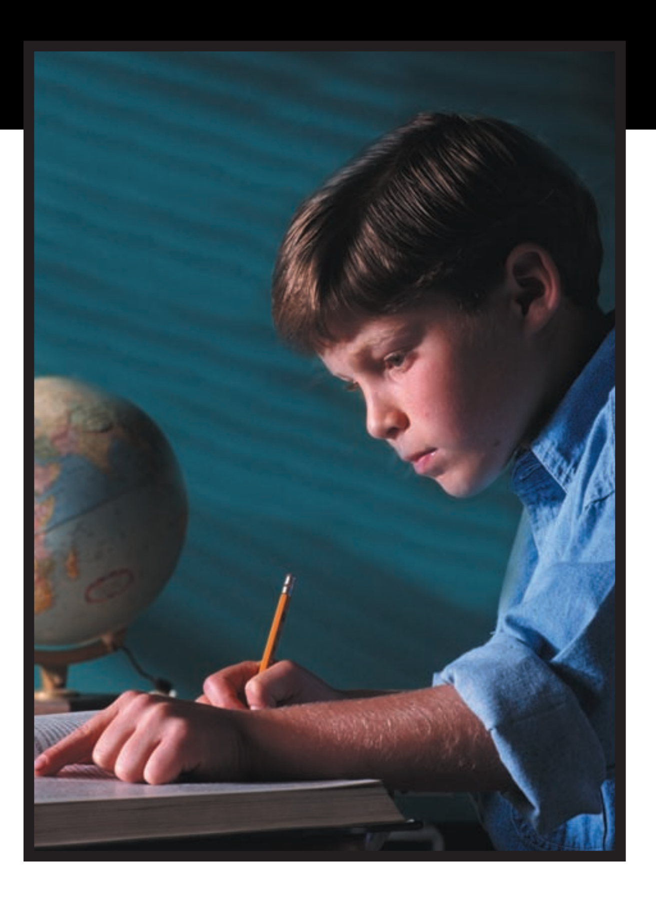
يعرض عارض يشـــتت الانتباه عند كل إنســـان بدرجة ما، ويشكل الانتباه عند التعرض للخطر أمراً في غاية الأهمية. وعندما ننظر إلى الحوادث التي يتعرض لها الإنســـان في حياته اليومية نرى أن بعضهـــا حوادث طفيفة وبعضها حـــوادث خطيرة قد تودي بحياته. وتقع معظـــم هذه الحوادث نتيجة عدم الانتباه. ويتعرض الأشخاص الذين يشْكون من السهو ومن قلة الانتباه إلى حوادث أكثـــر في حياتهم اليومية؛ فكثيراً ما نســـمع: "لم أكن منتبهاً، لم ألاحظ ذلك الشـــيء". ويجب ألا ننسى أن العديد من الأطفال يتعرضون لمشـــاكل كثيرة وحوادث خطرة ومشـــاكل صحية، وحوادث تنتهي بالموت نتيجة عدم الانتباه.

عوامل إفساد الانتباه

هناك أمراض بيولوجية ونفسية وعوامل تفسد الانتباه وتشتته. من أهمها عارض "النشاط المفرط". والأشخاص الذين يعانون من هذا المـــرض ومن عدم التركيز نرى أن المدة التي تتطلبها المواضيع التي تُعرض لهم -والتي تســـتلزم انتباهاً وتركيزاً ذهنياً- تكون قصيرة جداً. كما أن حالات التوتر والكآبة والقلق والإجهاد تؤدي إلى نقص في التركيز. والأشـــخاص الذين يعانون من هذه الحالات يصعـــب عليهم فهم ما يقرؤون وإن أعـــادوا القراءة عدة مرات مع أنهم كانوا يســـتطيعون فهمه سابقاً بقراءة واحدة. وهؤلاء لا يستطيعون إنجاز المهام التي تتطلب تركيزاً لمدة كبيرة.

وتظهـــر حالات عدم التركيز في الأشـــخاص الذين يعانون من أمراض عصبية كالخـــرف والصرع. كما أن هناك أدوية لها تأثيرات جانبية سلبية تؤدي إلى عدم التركيز.

وفي حالة قلـــة المحفزات وعدم وضـــوح الأهداف أو قيام شـــخص بمهمة تفوق طاقته أو بمهمة دون قابلياته أو عند زيادة الانفعال أو القلق... في مثل هذه الحالات تظهر مشاكل الانتباه. وعندما تتلقى حاســـة البصر أو حاسة الســـمع تنبيهات كثيرة جداً يظهر عند الإنســـان مشـــاكل في منظومة الانتباه وفي مدة الاستيعاب والفهم. وتظهر هذه الحالة كثيراً لدى الأطفال الذين يقضون مدة طويلة أمام التلفزيون أو أمام جهاز الحاسوب. ففي



أثناء هذه المدة تنخفض قابلية انتباههم من ناحية السمع والبصر. والتنبيهات التي يتلقونها تفوق سعة أذهانهم، لذا تظهر هنا مشاكل عدم التركيز. فعلينا الحذر من كل ما يبعث تنبيهات كثيرة لكي نتجنب قلة التركيز وما تنتجه من مشاكل ومحاذير.

وصايا للحفاظ على الانتباه

وتلعب قابلية الانتباه دوراً أساسياً في تحقيق القيام بمهمة التنظيم والتصنيف والتخطيط. ويجب تأمين هذه الخواص والصفات عند الدراسة والبحث وعند تنفيذ التعليمات. فإن جُوبه أحد بالفشل في هذه الساحات فعليه البحث عما إذا كانت عوامل الانتباه عنده طبيعية أم لا.

والانتباه يشكل أهم عامل في نجاح الطلاب، حيث يلعب عامل الانتباه للدرس ومداه وقوته عند أي طالب، أو مدى تشتت انتباهه دورا أساسيا في موضوع نجاحه أو فشله. فالطالب الذي لا ينتبه إلى أستاذه في الصف والذي يتشتت انتباهه على فترات متقاربة يُلاحظ انخفاض في نجاحه. ومهما بدا الطالب في الظاهر منتبها لأستاذه في الدرس فإن من المهم مدى انتباهه فعلاً وحقيقة.

يمكن برعاية الوصايا أدناه رفع درجة الانتباه، فهي تساعد كل شخص على تركيز الانتباه، وتزداد بالتالي القدرة الذهنية له:

- تأمين الاطمئنان النفسي والروحي.
- تناول الفيتامينات بشكل متوازن.
- تأمين مكان مريح وملائم للتكيف معه.
- مطالعة الكتب بشكل كاف.
- القيام بتمارين ذهنية لتقوية الذاكرة، منها تمارين الحفظ عن ظهر قلب.
- محاولة تطويل فترة الانتباه منذ مرحلة الطفولة. ويتم هذا بالاهتمام بتنظيم فعاليات التعليم واللعب والراحة حسب عمر الطفل.
- الابتعاد عن التعرض للتوتر والإرهاق.
- الابتعاد عن الأجواء المريحة جداً التي تبعث على الكسل والتي تقلل الحوافز.
- الابتعاد قدر الإمكان عن الملوثات (دخان السجاير، الهواء الملوث، منتجات النفط، المواد الحافظة للأغذية...)
- الابتعاد عن الضوضاء في أوساط العمل.
- تقليل التعرض للتلوث في ساحة العمل.
- الابتعاد عن التعرض للمنبهات الصوتية والبصرية واللونية القوية، أو التقليل منها.
- عدم الإفراط في الأكل.

قد لا تكون هذه الوصايا كافية عندما يكون تشتت الانتباه في مستوى عالٍ. لذا يستطيع المبتلَون بهذا مراجعة الأطباء أو ممارسة أنواع من التدريب والمران في هذا المجال.

والنتيجة التي نخلص إليها هي أن على الإنسان ألا يبذر نعمة التركيز والانتباه الموهوبة له في أمور لا تعود عليه بالفائدة في عمره الذي يعيشه مرة واحدة، ولا يجعلها هباءً منثوراً. فهذه القابلية ضرورية له في سعادته في الدنيا وفي الآخرة. ولكي نستغل قابلياتنا وطاقاتنا كما يجب فعلينا الحرص والحفاظ على ما عندنا من قابلية التركيز والانتباه.■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار

العالم والنور

شمس الحقيقة من بعيد تتراءى، وهي آتية لا محالة،
وبأضوائها سيغتسل العالم، ونورها سيغمر الظلمات،
والبشرية الظامئة للنور، ستدير أقداح الفرح والسرور،
لكل عطشان من بني الإنسان...

* * *

